

عن بيان ملتقى نادي القصة

الحمامات (4، 5، 6) جوان 1993

(1) العمل على تعيين هيئة جديدة لنادي القصة يعهد اليها البحث في السبل الكفيلة بتطوير العمل مع النادي الثقافي «أبو القاسم الشابي» المؤسس والمحتضن للمكاسب التي حققها كالتفتيش عن مصادر دعم أخرى في ضوء مستجدات «الاستثمار الثقافي» مع مختلف المؤسسات الاقتصادية التي يمكن تحسيسها بالتعاون المشترك في هذا المجال.

(2) مواصلة إصدار «مجلة قصص» مع هيكلة تنظم الاشراف عليها لتحسين إخراجها، وتوزيعها، والارتقاء بمحتواها عن طريق نشر الدراسات القصصية، وإصدار الأعداد الخاصة والممتازة.

(3) تكثيف نشاطات «نادي القصة» لاسيما التي من شأنها أن تمكنه من التعريف بالشكل الأفضل بالقصة التونسية وكتابها القدامى والمحدثين :-

- نشر إنتاج أعضاء النادي ضمن سلاسل خاصة والعمل على حصول دعم وزارة الثقافة «خارج التوصية بالنشر».

- إدماج الانتاج القصصي لأعضاء النادي في الدورة الثقافية عن طريق التحويل والاقتباس.

- تجذير الطاقات الابداعية في القصة لدى الشباب والتعريف بانتاجهم تشجيعا للبوادر الواعدة التي واكبها النادي منذ تأسيسه الى اليوم.

(4) التعريف بالقصة المغاربية والعربية والافريقية وترجمة نماذج من الادب العالمي والدراسات النقدية.

5) العمل على ترويج ونشر القصة التونسية والدعاية لها بمختلف الوسائل والتعريف بها في المجالات العربية والافريقية والعالمية.

6) العمل على اعادة تنشيط جائزة «نادي القصة» وتخصيصها دوريا للرواية والقصة والدراسات النقدية وفتح المشاركة سواء من داخل النادي أو من خارجه.



التابعي الأخضر

الشمس

تحني رجل الأرض، وكل
الكائنات أنهت رحلتها
اليومية، وهذه الطيور
تسارع إلى الأوكار. ومعيز القرية
تخلصت من سيطرة راعيها فهي
تجد في السير يحدوها الحنين إلى
المربط. حتى الحمر هي ذي تنهب
الأرض وعلى ظهورها صبيان
الخماسة يحثونها بالعصي. وقد ساد
السكون الواحة. وماتت أناشيد

آخر خرافات جدتي

الفلاحين لتعود في جناح الضفادع نقيقا. تلك كانت الساعة التي
أعود فيها إلى البيت وأقطع المسافة التي تفصل بين القريتين..
هذه التي أخالط فيها المدرسة، وهي قرية أهلة معمورة. والأخرى
التي أقطن هي المهجورة المقفرة، وليس بها غير جدتي وأنا وخيال
ثالث يغيب عنا دهرًا ثم يعود.

كنت أقطع المسافة والغضب لم يسكت بعد عني، فالأطفال
اغفروا المعلم بي : قالوا انني أتبول في البئر. وقد كان المعلم نهانا
عن الاقتراب منها. أنا أعترف أنني مهتم بالحديث عن هذه البئر.
متشوق لكشف ما يلوذ بها من أسرار وأساطير. ولكنني خائف
لكل الناس. إذ الاقتراب منها أمر لا يقدر عليه غير الأبطال وأنا
لم أصر بطلا بعد. ورغم أنني خرجت لتوي من معركة. فقد عيرني
رفيق. وأبدى شماتة بعقابي من طرف المعلم فضربته. فعيرني في
رجولتي، والأطفال من حولنا يرددون.. ولد الغولة بلا... وفي
صولة غضبي طرحته أرضا وعلوته. ضربته حيثما صادف
وبوحشية ما عهدتها في طبعي. حتى أبكيتته وانهارت دموعه،
وبصوته الممزوج بالبكاء والقهر، عاد يعيرني صب كل حقه في

كلمات فاحشة، وقال أخيراً :

- ستري .. إن أبي سيققتلك.
- قلت : اذهب وات بأهلك أجمعين.

واستغنيت عن افكاري لما نبحتني كلاب سالم الدب، فهو يحتفظ في بستانه بأنواع من الكلاب لا عهد للقرية بمثلها. فمرعب ما يصدر عنها من نباح. إنه يشبه زئير الأسود ينتهي بقرقة تشبه صوت الرعد إذ يرسل الصواعق. يوسف الدب هذا وجه من علامات الشؤم. في كل مرة تطالعني سحنه ألتقي شرا وما نالني اليوم كان سببه أنني رأيته يركب فرسه، وبرغم أنني أغمضت عيني كي لا أراه فقد نشب لي سوء الطالع. يوسف الدب! والبئر ! وخيال الرجل الذي يرسب دهره ثم يطفو ! أسئلة تحاورني، وما ظفرت لها بجواب. فكلما أسأل جدتي. تجد كلاما يشغلني عن انتظار الجواب.

قالت جدتي وأنا اقص عليها ما صادفني آخر النهار :

- هل رأييت ذلك الرجل الذي يأتي الى قريتنا فيؤنس وحدتي ؟.. إنه طالع خير وما أظن إلا أنه من الدراويش ذوي الكرامات فلا تأوحي هذه القرية المهجورة قبيح الضالحين...

وبادرتها بالسؤال : هل أنت منهم ؟ فلم تجب ولكنها قالت :

- ' قصتك مع البئر فلطالما حذرتك من الاقتراب منها. وأما معلمك والطفل فليس لي فيها نظر. معلمك سلطة فتحمل وحدك مسؤولية ما فعلت فلم تعد لي قدرة على الاعتذار وقد انتحلت لك كل الاعتذار حتى أنهيتها. فإذا صادفك غدا ما لا يسرك فاكتمه عني.

وسألتها :

- ولكن اذا صادفني ذلك الرجل المجنون!

وانتفضت المسكينة من شدة الرعب حتى اشفتت عليها وكيف لا اشفق وهي امي وجدتي وكل أهلي. وقالت بعد أن عاودها الهدوء :

- لا تكن فضا فتذهب علينا بنزقك نعم الله. ورضا الصالحين
من عباده. قل له سيدي وقبل يده إذا تكرم !

- إذن فسأدعوه سيدي عوضا عن المعلم اذ لا يمكن أن يكون لي
سيدان، واحد هنا وآخر هناك

- انك مازلت في اول المشوار فكم سيدا ستلقى وكم من
سيد غير كريم.

قلت على وجه المزاح :

- اذا لم تخبريني عن سر الرجل والبئر. فاني سأسأل
الرجل إذا لقيته. وأذهب الى البئر فأخاطب أهلها.

- يا ويلى من هذا الطفل العذاب (قالت جدتي وهي تلطم
وجهها) والله لو فعلت ذلك لأضعتنا.

وسألتها :

- وما هذا الذي نحن فيه ؟ اليس هو الضياع ؟

وردت :
ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- هناك ما هو أفظع من الضياع. فكن شاكرا لما تعرف قبل
أن يحل عليك ما لا تعرف. تسأل عن الغائب وتهمل الحاضر. اسأل
عن نفسك.. ابدأ من الآن فلربما تشغلك الشؤون عنها.

قلت :

أنا لم أعد صغيرا لقد بلغت مرحلة الفهم. وهذه الأسرار من
حولي فلا أجد طريقة للتسرب اليها.

وهددتها بأنني سأرحل. ولن أعود اليها ان لم تفصح لي عما
يشغل بالي.

- ماذا تريد أن تعرف

سألتني الجدة بصوت فيه نغمة من خضوع.

- أولا البئر ! ولماذا لا نتقرب منها ؟ المعلم ينهانا ويؤكد.
وأنت أيضا. تحذرينني. وهذا الرجل الذي يظهر ثم يختفي ما
خبره ؟ وقربتنا الخالية الا منك ومني !!

- لا تصدق ما يقوله الناس على أفواه اطفالهم إنك مازلت
غضا لا تتقبل الأحداث كما يزعم رواتها. إنهم يخلقون الأساطير
يروجونها عن طريق الصبيان، فتصبح حقائق في بعض العقول
البالية. أنا أحدثك عن البئر وهو أصل كل جواب. فقد حفره
سيدي عبد الحفيظ ليسقى منه العسكر والاتباع يوم دافعوا عن
الدين من شر جيش الاحتلال الفرنسي ولأن سيدي عبد الحفيظ
رجل بركة وصلاح فقد ربط البئر مباشرة مع بئر زمزم هناك في
مكة. وقد أكد كل الحجاج أن الماء الذي يشربونه هنا هو نفسه
الذي يسقونه هناك.

- يا جدتي ! إن الاطفال يقولون :

- لا تحدثني بما يقول الاطفال. أنا شاهدة على ما اقول.
فسيدي عبد الحفيظ صاحب الكرامات والعسكر. أنا أعرفه وهو
سيدي وأنا أنفذ وصيته فلن أقادر هذا المكان حتى يعود فانا
انتظره وقد همست في أذني وهو يغادر الدار القانية : لن تبرحي
مكانك فسأعود ولو بعد مائة سنة أو أكثر فلا تحسبي الزمن ولا
تلمي الانتظار. ومتى وقع الخصام حول ملكية البئر أصابها الجفاف
لأن مياهها ستتغير. ستغمر القرية وتجرها للخراب. ولكن لن
يصيبك يا مريم غير الهلع، وقتها امتحني قوة إيمانك. وإلا أصابك
ما يصيب القوم. ينزحون وينزاحون عن أغراضهم...

واستمرت جدتي في سرد خرافتها مع سيدها وأنا أعرف
أنها إذا بدأت في السرد فلن تنتهي حتى ينتابني النوم. ولعها
تسترسل حتى نهاية ما تريد ان تقول. وأنا اغالب النوم قلت :

والرجل ؟ كفي عن حكاية سيدك هذا.

- قالت : ومن الرجل ؟ قلت لك : قل سيدي افهمت ؟ وان لم
تقلها...

ولست أدري أن كنت أحلم أم أنا يقظان فقد دعاني ذلك
الرجل اليه. وأنا أقترب منه وارتعد خوفا. وهو ينظر اليّ شزرا
قال يخاطبني :

- انت تلح. تريد معرفة اشياء غادرها الدهر .

قلت وقد عاودتني شجاعتي :

- أريد أن أعرفك أنت.

- أتريد ذلك حقا.

- نعم سيدي.

- ها إنك قلتها. فلا بد إذن من مكاشفتك، الا ترى أولئك
الناس.

- إنني أراهم يتعجلون السير.

- إذن فالحق بهم إن كنت ترغب في الجواب. أسرع خلفهم
التحق بهم، ومن خلفي تهبقة الرجل اللغز تلاحقتني. فهل يهزأ بي
ليعاقبني على ججوبي. ولكني يرغمي تماييت فانضمت إلى
الجموع. حتى انتهينا الى فضاء يحيط بالبنر. حاورتني أسئلة
ولكن من أسأل ؟ فكلهم في عجلة من الامر أو هم متطلعون فكأنما
يمارسون طقوسا. وأخيرا صاح أحدهم : لقد جاء صاحب الكرامة.
وعلت الغمغمات : البنر جفّ ماؤها فلا بد من تدخل الرجل صاحب
الكرامات ليعيدها الى عهدا وينبع الماء من جديد. أنا لم أر
الرجل فقد حجبته عني قصر قامتي. ولكني شاهدت - وأنا أطل
من بين السياقان - لحافا أحمر يغطي فوهة البنر وأيديا ترتفع
بحركة بطيئة ثم تهوي. واشتد بي حب المعرفة فمرقت من بين
السياقان لأتعرّف على الرجل، وما كان أشد عجبني حين رأيت
يوسف الدب هو الذي يقود الجوق ولا أحد غيره يعطي الاوامر
لحاملي اللحاف. فما صدقت نفسي أن يكون يوسف الدب صاحب
الكلاب الشرسة والبستان المحروس قادر على استدعاء كرامة
ناهيك أن تنفجر على يديه. ولأنني أعتقد ولو خطأ أن الدب هذا

طالع شؤم فلا بد أن ماء البشر سيزداد غورا أنا لا أحمل حقدا لهذا المدمو دبا. ولكنه يجلب لي النحس كلما افتتحت يومي برؤياه وكان بوذي لو أن لي قدرة - لتقدمت وأزحته. وصحت في وجهه : دجال !! ابتعد عن البشر ! فما يجري الخير على يدك وأنت الشؤم. عد الى كلابك فما أنت أهل إلا لمعاشرة الكلاب. وكادت تخرج الكلمات من فمي فتفضح أفكارى. وارتفع الضجيج.

« ابعدوا الدجال !! ابعدوا الدجال... »

عمت الفوضى وامتدت الأيدي الى اللحاف الأحمر. فإذا هو يتوزع في الأيدي قطعاً صغيرة....

وأنا أقص على جدتي رؤياي. وألومها على أنها لم توقظني، وهي تعرف أنني غصت في حلم مزعج.

قالت :

- لو كنت تؤمن بسيدك، وتسير على خطى جدتك لما رأيت غير ما يسرك. وطالما أنك لا تميز الألوان فقد تضيع رجلك في ابحر عوضاً عن اليابسة. أنا انتظر سيدي حتى لو غاب مئات السنين. ولكن من تنتظر أنت أليس الماء هي التي جربت القرية. وحتى لو عاد للبشر ماؤها فهي غير صالحة لأنها كانت تنفق من زمزم. وهي الآن على اتصال بالبحر فمن يشرب الملح الأجاج.

كانت تنضب في بعض المرات فيأتي سيدي عبد الحفيظ فيسدل عليها الغطاء الأخضر ويتحدث إليها فإذا هي تفور ماء فتزغرد النسوة وتعيث روائح العطر فتملأ القرية فرحاً. وتدنق الطبول.

- ولكن يا جدتي.. الأطفال يقولون...

- أنا أعرف ما يقوله الأطفال لذلك حذرتك من الاقتراب من البشر. وحذرتك من الانصات إلى ما يقولون.. يقولون لك إن البشر يسكنها الجن وهي التي حولت ماءها. ان ما سمعته مجرد هراء. وحتى لو كانت الجن تسكن باطن البشر. فماذا يهمك أنت. هم

رضوا بالسكن في قاع البشر. فمالنا ولهؤلاء الذين لا تصلنا بهم
علاقة، وقالت :

- يقول الأطفال أيضا إن الدب يوسف هو وحده القادر على
التحكم فيهم.

وانتفضت الجدة.. وبعصبية رفعت يدها وصفعتني.

- لا تؤمن بما لا يكون. إن سيدي عبد الحفيظ هو الحاكم
فالانس والجن تحت حكمه.

نعم الأطفال يكررون ذلك. ويؤكدون أن سعدون الخادم مرّ
ليلة من هناك. فرأى الجن وجلس اليهم وتحادث معهم. بل
استضافوه فاكل معهم وأخذ عليهم عهدا بخدمته متى احتاج اليهم.
وها هو يشفي المرضى ويسهل للناس كل الأغراض.

وقلت احاور جدتي : ان اهل القرية يؤمنون بما يتم على يد
سعدون. فاجابتنني :

- ولكن اهل القرية هناك. أما نحن فإننا هنا. فلو أنهم
كانوا يملكون عقولا لما هجروا مساكنهم وأنشأوا قرية ليس بها ظل
وليس لبيوتها أسس. فانتظر يوم يرحلون ولا يجدون لهم مستقرا
حتى يوسف الدب. قلت أسأله : فاجابت يوم تموت كلابه لم يعد
معنى لوجوده.

وسألتها وبستانه ؟ فردت :

- ستسترجع الأرض ما أعطت لا تصدق ما يروجه المبتطلون
أنا أعرفهم باسمائهم سكان البئر لقد مكثت السنين أحاورهم، وما
كشفوا لي عن مشروع. لقد أخذ علي شيخي سيدي عبد الحفيظ
عهدا أن أتفق مع نفسي ما حييت وأنا أنتظر عودته.

وقلت مستوحشا : وماذا عن السيد الذي يأتي وحيث لا
يستدعيه غرض. ويغيب دون أن يدفعه سبب.

وردت جدتي بعصبية :

- لا نتحدث عنه بهذه السهولة. إنه حارس امانات سيدي.
إنه سيدك أما قلت لك. إنه يموت ثم يبعث. وكمن من عنيد مثلك
سولت له نفسه أن يعرف ما لا يعرف فاذا هو ... لا ليس الآن. لن
أقول كل شيء قبل الأوان.. إن يوسف الدب يزعم أنه يحرس
البئر. ولكنه سرق ماءها الذي انتزعت البركة فلو اقتحموا عليه
بستانه لعثروا هناك على كل مصائبهم ولكن ليس فيهم من يقدر
على ذلك. إنهم يترقبون المعجزة ونسوا من تأتي على يديه. وحتى
لومت فلن تبوح بذلك لأحد. لا تقل : إن جدتي ماتت. فسينال
الموت بعضا مني. فأنا لست شخصا واحدا كما تراني.

لقد أنجبت ما يعمر هذه القرية المهجورة ولكن ما كل
الانجاب بصالح للحياة. فمن ثمرد على سيدي أتمرّد عليه. وقد
أبقىك عمدا لتنضج الثمرة على يدك. فاذا ملكت بستان يوسف
الدب فلا تجعل دونك سياجا ولا حرسا. إنك إن فعلت ذلك فقد
حرمت الطبيعة من أداء مهمتها. قم الآن وشارك أهل القرية
الأفراح فهم يحتفلون بموت يوسف الدب. وقل لهم إن جدتي تقول:
اغرسوه على رأسه في البئر التي سرق ماءها من البئر المشاعة.
وإذا لم تفعلوا ذلك فقد يعود وفي عودته هذه سيحفر آبارا في
عقولكم. وسيغرس أشجاره هذه المنة في أعجازكم. قم الآن وأسرع
فقد قرروا دفنه على الربوة هناك. وسيبقون وقتها هم الأسفلون
وهو الأعلى.

وصلت والقوم يحملون التابوت... والحشد من الناس
يتابعون المشهد. وكأنهم حزاني.. وفي بعض العيون شعامة لم
يقدرها على كتمانها. وقتها ظهر الرجل اللغز خطيبا وتوجهت
إليه الوجوه : فقال كلاما في حق يوسف الدب. كلاما يقطر
قدراته. حتى اشماز الحضور وكاد بعضهم يتقيؤ. وظن أكثرهم أن
الدب لن يقبل هذه المقالة وأنه سوف يغادر مثواه لتنشب حرب
كلامية. تزيد في فضيحة المتخاصمين. ولكن جسد يوسف كان قد
غمر أكثره التراب وكنت أستمع لما يقوله الرجل الظل دون
اكتراث فقد فتح باب الوعود على مصراعيه. كل الخير الذي ينزل
من السماء سيمر من هنا. ولن ينال منه البشر إلا ما تساقط من

بين أيديكم.. ساعيد للبئر قداستها. وقد ذهب بها هذا الذي صار الى التراب. أفسد كل ينابيعها وأفسد كل علاقة تربطها بزمزم. وسترون أنني الوحيد الذي يقدر على ما قدر عليه سيدي وسيدكم عبد الحفيظ، فالبئر لي وماؤها لكم. الأواني التي تحوي الماء لكم والماء لي. لقد كنت لكم الصديق المحب ولكن يوسف هذا الذي ما أظن ألا أنه في الجحيم الآن خرب هذه الصداقة. وسوس اليكم بغير ذلك. وزرع في طريقكم صداقته الموهومة فهو صديقكم العدو وأنا عدوكم الصديق. لقد مكثت السنين أحرسكم من هذه الصداقة المشبوهة. فأنا أعرف كل حركة دب في هذا العالم. فهل أترككم لهذا الدب الغول.. لا تخافوا بعد الآن فلقد ربطت كلابه إلى سلاسل لن تغفل الدهر منها، وحركت الخصومات بين ورثته فأصبح بستانه قطعاً موزعة بينهم لا تشيع قطعة أرض أكلها. وسترون أنني من أهلكم سأجعل في قريبتكم للشمس أزراراً. كما يفعل أهل المدن بالكهرباء. وسأجعل للمطر مقابض تديرونها بأيديكم. وستجدون أنكم أصبحتم من أغنى الناس في العالم دون أن يطلب منكم أن تبذلوا جهداً أو يخالطكم تعب. ولكن أصواتنا دمرت تقاطعه.. كذب! كذب! وصاحبت أخرى تؤيده : صدق ! صدق !! ولكن الرجل لم يغضب من هؤلاء ولم يفرج من قول الآخرين وقال ضاحكا :

اسألوا تلك العجوز التي في القرية الأخرى. إنها أم الجميع. إنكم ولا شك تثقون بأقوالها. أليست هي التي وقف لها الدهر يحییها.

ولم أدر كيف صحت أعارضه والكلمات تخرج من فمي ومالي قدرة على صدها. تلك جدتي ولا حق لأحد في غير احترامها.

تركت الجميع في خوض بين مؤيد لهذا الدعي ورافض لما يقول. وعدت الى جدتي أستفسرها عما يحدث. فإذا هي تصدني تدعي المرض. وأنا أعلم أنها لن تموت حتى لو سلطوا عليها السيوف. وحتى لو اجتمعت كل أمراض الناس في جسدها الواهي. فقد تدربت على كل داء فما فتك بغير نفسه وتظل جدتي وكأنها صنعت من برد. ولما بالغت في الالاح قالت :

- إنها أشبه باللعبة فلو تماذى الناس في مشاهدتها لانتقموا من أنفسهم. إن يوسف الدب قتلتة كلابه وهو لا يعلم أن الغبي من أوكل للكلاب حراسته. ولم يعد هناك ندم يتسلى به المغفلون فقد استهلكه اقوام قبلنا.

قل لأهل هذه القرية اذا عادوا يوما لإعمارها : أن يجمعوا الكلمات التي تتداول على ألسنتهم، قل لهم : إن المعجزات انتهى زمنها والمصدقون لها.

أرأيت ذلك الطائر ؟ أشارت إلى شجرة هناك يبست أعوادها مذ وعيت وما وقع عليها عصفور.

أرأيته ؟ ورفعت رأسي حيث أشارت.

قالت يمكنك أن تسأله يوما لماذا اختار تلك الشجرة بالذات وفي هذا الوقت بالذات.

قلت : قل لي لماذا يا جدتي. فقد لا يمهلني الزمن حتى أصل الى ما تقصدين.

قالت : ربما حدثتلك الشجرة بنفسها إذا أوقعت وربما تسمعه في لغة العصافير وقد بشت أعشاشها هناك. فليس في قدرة أحد أن يمنح الحياة. ولكن في مقدور الكل حتى الحشرات أن يصنع الموت.

التابعي الأخضر

(1) - مشهد قديم يتكرر.

كَلَّمَا
قادته ساقاه إلى «الدريبة»
أدرك فرحه البدائي
وارتقت من آخر المدى
زقزقات كانت تنسكب من بقايا
ظلال قيلولة قديمة تمتزج فيها
روائح السمك المقلي ورطوبة الجليز
وأحلام النائمين وهمسات الأطفال
يتظاهرون بالنوم ويرتعدون خوفا
من أيدي الرجال الخشنة.

طفلة البدايات

(عيون الرجال قاسية وأقدامهم تتحرك على إسفلت الزقاق
فتنطفئ شموع الضحك وتلوذ وجوه النساء والأطفال بصمت
القيلولة..)

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

القيظ ونسيم البحر وبكاء الصبية في المنازل المجاورة
تداعب أحلام يقظته..

كَلَّمَا قادته ساقاه إلى «الدريبة» تراءى له وجه الطفلة سمرة
يزينها اخضرار عينين واسعتين والشعر منسدل على كتفين
نحيلتين في امتداد شاطئ يعج بالمستحمين..

ترتفع الموجة تنخفض.. البحر أغاني الصبايا عند التشهي
حنين الرجال ينسكب بين الضلوع العتمة تلتفح الحيطان الهرمة
والسلم...

(كان يضع رأسه على ركبة إحداهن كي يفرق في نوم هادئ
رغم الضجيج...)

السقيفة الآن تهدمت والسلم نتأت أخشابه والنافذة التي

كانت تطلّ على سطوح المنازل المصقّفة في مدرج عريض ينتهي عند الميناء والبواخر وقوارب الصيادين غطّاها نسيج العناكب..

(وجه الطفلة عيناها الخضراوان وراء الخيوط المتدلّية من سقف النافذة..)

كان يدعوها إلى اللّعب فتهرب منه وتختفي في زحمة النساء الراقصات وزغرداتهنّ.. ويفرح كلّما عجت السقيفة بضحكاتهنّ وبروائح البخور وبدا له ذلك الوجه في تثنيات الدخان المتصاعد من المجامر قطعة تنطّ في أيّ اتجاه ولا تموء.. حينما قادته ساقاه إلى «الدريبة» استيقظت فيه وجوههنّ عيونا وشفاها كأنّها تتلاحق في قطار عجوز تخترق نوافذه المضاء غابة اللّيل وللصغير المدوّي حنين فجر يحلم به دون أن يراه وللطفلة سمرة يزيّنها اخضرار عينين واسعتين وللمدى الدفين زقزقات الطائر، حبيس ذلك القفص المعلّق على جدار السقيفة في ضيق قديم هناك. هنا..

2 - المجوز بلحائها الأسود

«الدريبة» دكاكين مصقّفة والمارة يتنقلون بعسر في بارحة العيد..

ترتفع أصوات الأغاني المسجّلة متداخلة وباعة الأدباش القديمة... أبصرها تضانك الزحمة.. هي بمشيتها المتباطئة ولحافها الأسود تظهر في موج الرؤوس المتنقلة وتختفي كي تظهر من جديد.. لعلّها تمضي إلى هناك بعد غياب أعوام. «هل تذكّرين جلسات السقيفة؟ الدريوكة؟ رقصات الصبايا؟ روائح البخور؟...»

المسافة بينه وبينها رؤوس وسلع معلّقة على الجدران ومكدّسة على العتبات في الأكياس والصناديق. واللّحم يقطر دما والبيض والدجاج في الأقفاص والسياح وعربات الكعك والخبز الصغيرة..

يضانك الزحمة.. الوصول إليها أمل قد يتحقّق يوما.

كلّما قادتة ساقاه إلى «الدّريبة» اختار الجلوس في ذلك المقهى قريبا من الزجاج كي تظهر له بعد دقائق من بدئ ترشّف قهوته الصباحيّة.. يبصرها في ضجيج الأغاني المسجّلة وأصوات الباعة وفي موج الرؤوس المتدافعة مدبرة تضانك السبيل وكأنّها تتّجه إلى السقيفة المهذّمة قريبا من ذكريات زقزقات الطائر الحبّيس والطفلة ذات العينين الخضراوين والنافذة المطلّة على سطوح المنازل المصفّقة في مدرج عريض ينتهي عند الميناء والبواخر وقوارب الصيادين..

مرّت أيّام شهور وهو كمادته في كلّ صباح يجلس هناك في مقهى «الدّريبة» قريبا من زجاج الواجهة كي يشرب قهوته وينتظر العجوز تسير مدبرة في اتّجاه منزل قد يكون ذلك المكان القديم في أعلى الزقاق المدرّج.. ولكنّها اختفت منذ أن رآها في آخر مرّة على بعد خطوات مرقّعة اللّحاف الأسود.. حاول النهوض في ذلك الصباح ليلتحق بها فلم يقو على الحركة.. همّ بالصراخ.. لا صوت في الحنجرة.. فكّر في الاستنجد بأحد الجالسين.. المقهى فارغ في ذلك الصباح والنّادل كان عند مرورها يوزّع كؤوس القهوة والشاي على الدّكاكين القريبة وصاحب المقهى يقطّ في نوم ثقيل..

مرّت أيّام شهور أعوام واندھش ذات صباح لمأى نعش ترفعه أيدي رجال يضانكون الزحمة ويردّدون كلاما لم يتبيّن معناه في هدير أصوات الباعة والمارّة..

أبصر من القريب وجوها مذعورة وعروقا نافرة فحاول الوقوف.. لم يقو مرّة أخرى على الحركة.. همّ بالكلام، فتلعثم لسانه ثمّ نطق ليسأل النادل : «من الميت ؟»

أجابه ببرود : عجوز في السبعين..

حينما استعاد القدرة على الحركة دفع ثمن قهوته وأسرع في مغادرة المكان.

كان زقاق «الدريبة» يغصّ بالمارّة والباعة.. المسافة بينه

وبين نعشها رؤوس وسلع مكدسة على العتبات في الاكياس
والصناديق واللحم هناك معلق على أبواب الجزارين يقطر دما...
يتنأى نعشها ثم يختفي ولا يبقى من اثارها إلا «الدريبة»
وذكريات زقزقات الطائر الحبيس وضحكات النساء الراقصات
ووجه الطفلة ذات العينين الخضراوين وتلك النافذة..

3 - أخبار المطلقة

كان ذلك في عشية يوم قديم.. وضع رأسه على ركبة إحداهن
وتظاهر بالنوم ليستمع إلى الأحاديث والضحكات...

رددت زينوبة : «اللطف يا ربّي...» وروت بعض التفاصيل
من حكاية المطلقة..

(الظلمة الماء الرجال يزورونها فجرا.. رأتهم يغادرون بيتها
متلصّصين، في كلّ يوم واحد.. الكهول فقط.. تخاف من الشبان أو
لعلها تريد الخبرة...)

«اللطف يا ربّي..» قد تكون العيون بدأت تدمع حينما
استيقظت الشهوة في حريق المجرمة والبخور وهدير الحكاية..

قالت زينوبة : رأيته في أحد دكاكين الدريبة عارية الوجه
والرقبة والزندان تلوك اللبان وتضحك بصوت عال والبائع
يهمس إليها وعيناه إلى المارة..

«سترك يا ربّي ..! أمرت جدته الخالة العزباء بمغادرة
المجلس..

(الظلمة الماء الرجال يزورونها فجرا قبل أن تستيقظ ابنتها
الصغيرة...)

سألت الأم زينوبة : أين أهلها ؟

(لا أهل، الأب والأم ميتين منذ الطفولة والأخ أكلته الحرب،
الظلمة الماء الكهل الأسمر الطويل بعينيهِ المتعجرفتين زفرات
التشهي الجسد العاري يستقبل ربيع الحياة القيقظ في الخارج

وبرودة اللحاف والوسادة والشعر المبكّل بماء الورد...

حينما توقفت زينتوبة عن الحكاية فتح عينيه بعد ضجعة كاذبة، وسأل أمّه عند انتهاء المجلس : أين الطفلة صاحبة العينين الخضراوين ؟

تملكه حزن النهاية لما علم بأنّها ابنة المرأة المطلقة ولن تعود...

مرّت أيام شهور أعوام دون أن يراها.. إحساس غريب يدفعه إلى الاعتقاد اليوم بأنّ النعش الذي رآه منذ عامين، تقريبا، كان يحمل جنّة المرأة المطلقة، ولكنّه سيظلّ مسكونا إلى الأبد بسمرة ذلك الوجه الطفوليّ يزيّنه اخضرار عينين واسعتين وبالشعر الأشقر ينسدل على كتفين نحيلتين في امتداد شاطئ قديم يعجّ بالمستحمّين...

مصطفى الكيلاني



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

« الدّريّة » مكان بعينه في مدينة سوسة العتيقة.

قليلة وتنتهي فترة تعاقد
مع وزارة الصحة اللبنانية.

أسابيع

لم تعد به رغبة لتجديد
العقد. أصبح يتوق بصورة ملحة
الى التغيير والرحيل بعيدا عن
منطقة الشرق بعامة وعن كل ما
يذكره بسنوات عمره المجرود...

ولد يتيم الأب تحت سماء

ويموت الحب مرتين

خيمة قديمة بأحد المخيمات خارج حدود وطنه السليب تحت دوي
القنابل وقصفا المدافع وهدير الطائرات، لحقت أمه بأبيه قبل
بلوغه سن الفطام فأحتضنه شقيقه الوحيد فارس ورعاه. ولما شب
وترعرع اكتشف حقيقة حاله وعمق مأساته فأخذ احساسه بالوحدة
والغربة يتنامى ويتعاظم مع الأيام. وفي فترة ما خيل إليه أنه
مقبل على مرحلة جديدة سعيدة في حياته، وأنه سيتخلص الى
الأبد من ذلك الاحساس القاتل بالوحدة والغربة والضياع الذي
طالما أرقه وأرهبه لكن سرعان ما يتضح له أن ما تصوره حقيقة
لم يكن سوى حلم جميل ووهم خادع، وأن الأقدار كانت تلاعبه
وتسخر منه كعهدا معه دائما.

يصطبغ كل شيء في عينيه بلون السواد، يكفيه ما عاناه في
ما مضى من حياته الشقية، منذ عشرات السنين وهو يعيش على
حلم لم يتحقق، الحلم بالعودة الى ربوع الوطن المغتصب، ينام
ويصحو وسط اللهب وسحب الدخان على مشاهد الموت والخراب،
لم يعد يحتمل مزيدا من العذاب.

إنه في حاجة الى التغيير، سيترك بلاد المشرق ويشد الرحال الى المغرب العربي وبالتحديد الى تونس الخضراء.

إنه على يقين بأنه سيجد هناك الاستقرار وراحة البال والسلوى.

لم يتردد، ولم يشغل نفسه بالتفكير طويلا.

سمى الى مسؤولي منظمة التحرير وأفصح لهم عن رغبته بعد أن شرح لهم ظروفه، فوجد منهم تفهما واقتناعا ووعدوه بالسعي لدى السفارة التونسية في الغرض، وفي انتظار رد الحكومة التونسية طلبوا منه إحضار الوثائق اللازمة لاعداد الملف.

لم تمر غير بضعة أيام حتى جاءه الرد بالموافقة، تنفس الصعداء. أخيرا سيتخلص من الكابوس الثقيل الذي لازمه منذ نشأته. وأخذ يهيئ نفسه للسفر.

وفي يوم لن ينساه ركب الطائرة الى أرض الحلم والامل.

أقام بالعاصمة أياما أنهى خلالها إجراءات الإقامة والعمل، ثم تحول الى الجنوب الشرقي من البلاد حيث انتدب للعمل بولاية قابس، قضى بالمدينة يوما حيث اتصل بالادارة الجهوية للصحة لاستكمال بعض الاجراءات، وفي الغد حملته إحدى سيارات الادارة الى القرية الجبلية التي عين للعمل بها.

لقد أعدوا له مسكنا مناسباً أثث بما يفي بالغرض. اهتم ممرض المستوصف وأسرت به ووقفوا على خدمته في الايام الأولى من إقامته. ثم احضروا له سيدة متقدمة في السن لا أهل لها ولا ولد عرفت بدمائه خلقها ونظافتها والتزامها الدقة والنظام في كل أمر.

علاوة على حذقها للعديد من أنواع الطعام فهي من مواليد العاصمة وبها قضت جل سنوات شبابها.

أمضى غسان الايام الأولى من إقامته بالقرية في حالة عدم

استقرار نظرا للتغيير المفاجيء الذي طرأ على أسلوب حياته، فهو لم يتعود على معيشة أهل الريف من قبل، وبمرور الأيام أخذ في التكيف مع وضعه الجديد، ولم يلبث أن استهوتته حياته بالقرية بما اتسمت به من بساطة وعفوية وهذوء واستقرار، لقد استراح من صخب المدينة وزحامها وتناقضاتها، كان دائما يشعر وهو هناك أنه مجرد رقم ضائع في خضم ملايين الأرقام، أو مجرد جزء صغير في آلة ضخمة عملاقة.

لم يعد يعذبه ذلك الاحساس القديم، أحب القرية وأهلها الذين أسروه بلطفهم وكرمهم وحسن معاشرتهم، كثيرا ما سأل نفسه كيف استطاع العيش بين جدران المدينة العالية كل تلك السنوات دون أن يشعر بالسامة والملل ؟

رغم طبيعة المنطقة القاسية المتقلبة معظم فصول السنة، ورغم مظاهر الفقر والحرمان البادية في كل مكان فقد كان سعيدا غاية السعادة، ومما ضاعف من سعادته قلة عدد المرضى الذين يترددون على المستوصف الأمر الذي جعل منه شبه عاطل عن العمل، فجميع أهل القرية تقريبا يتمتعون بصحة جيدة، أجسامهم سليمة. ومن المؤكد أن لسكناهم في أعلى الجبل ولنمط عيشهم ونوعية غذائهم الذي لم تفسده الصناعة أثر كبير في ذلك علاوة على نقاوة الهواء الذي يستنشقونه المشبع برائحة الشيح والاكليل والزعر والبابونج وغير ذلك من النباتات والأعشاب البرية المعروفة بمنافعها الكبيرة وجدواها في معالجة الكثير من العلل والأمراض.

ولم تمر غير بضعة أسابيع حتى توثقت العلاقة بين غسان وبين بعض أعيان وأهالي القرية وهو رجل اجتماعي بطبيعته لطيف المعشر ميال للمرح والدعابة واللهو البريء، سهل الجانب، مسالم، نادرا ما يغضب أو يثور، فيه براءة الأطفال وداعتهم..

اعتاد أن يقضي معظم أيام الاسبوع بالقرية وبين الحين والحين كان يتردد على قاييس للاتصال بالادارة أو لقضاء بعض الشؤون، كما كان لا يتردد في زيارة هذه المدينة أو تلك من مدن

الجنوب كلما سمحت له الفرصة بذلك. لقد اغرم بالجنوب، استهوته طبيعته الخلابة التي جمعت بين جمال البحر وسحر الواحة، وروعة الجبل، وغموض الصحراء، وأحب أهله وأنس اليهم لما لمس فيه من كرم وشهامة وصدق ورجولة.

ذات يوم بينما هو يتهيأ لمغادرة مكتبه بالمستوصف إذا بمساعده الممرض عياد يدخل عليه ويخبره بوجود فتاة قدمت لتوها تقول : إنها مريضة - وهي فتاة فقيرة تقيم وراء الجبل بالطرف الغربي، بعيدا بعض الشيء -.

ولا يترك له غسان فرصة الاسترسال في الكلام، فيأمره بإدخالها عليه، وينشغل أثناء ذلك بالبحث عن شيء ما فوق المكتب.

دخلت، وأغلق عياد الباب خلفها، تقدمت وثيدة الخطى، وقفت قبالتها، حيث بصوتها المخملي الناعم :

- صباح الخير يا حكيم.

رد عليها التحية دون أن ينتظر إليها.

وتعود هي إلى القول :

- معذرة على مجيئي في وقت متأخر.

- لا بأس.. فترة الدوام لم تنته بعد.

مما تشكين. ؟

- أعاني من صداع نصفي حاد

- منذ متى ؟

- منذ بضعة أسابيع

- لا تقلقي

وعثر على الشيء الذي كان يبحث عنه، ورقة صغيرة مطوية، تناولها ووضعها في جيب سترته، ثم اعتدل في مقعده

والتفت ناحيتها وما أن وقع نظره عليها حتى ظل جامدا مكانه
يبخلق فيها كالأبله أو كالمسحور، مشلول الفكر، خفاق الجنان.

قائمة معتدلة، جسم ضامر في غير نحول، شعر أسود فاحم
تجمّع في جديلة طويلة تدلت على صدرها المكتنز الناهد في سحر
خلاب، وجه مشرق وجبين وضاء، عينان دعجوان تتحديان عيون
المها. انتابها إحساس بالحرج وضيق تحت وقع نظراته الثابتة
الحادة، هي لا تجهل أنها جميلة لكن لم يدر بخلدها قط أن يكون
لجمالها كل ذلك التأثير، وعلى من ؟ على رجل شرقي قد تخطى
مرحلة الشباب، وطبيب مرة واحدة، أم ترى الأمر غير ما توهمت،
من يدري فقد يكون لاحظ عليها علامات مرض خبيث ؟

ويوقظه صوته من شروده :

- هل حالتي خطيرة يا حكيم ؟ ..

- لا .. لا أبدا .. أنت بخير .. تفضلني استريحي.

جلست وقد زایلها ما أصابها من قلق واضطراب ويقول
مهدئا من روعها وقد طلق وجهه بالابتسام :

- ما كل هذا الانزعاج، رغم أنني لم أقم بفحصك بعد فأنا على
يقين بأن صحتك على ما يرام، فاطرحي عنك القلق جانبا.

- الحقيقة لقد توجست خيفة من نظراتك الي.

- الظاهر أن الخيال قد شطّ بك بعيدا. أسف على الازعاج
على أية حال. والآن دعينا نتحدّث عن حالتك، قلت : إنك تتألمين
من صداع نصفي ؟

- بلى

- منذ متى ؟ ..

- منذ حوالي نصف شهر تقريبا.

- هل تناولت دواء ما ؟

- لا شيء غير الاسبيرين.

- هل تشكين من اضطراب في النوم ؟

- اطلاقا.
- حسنا، افتحي فاك... أكثر... هكذا.
- قللي آه...
- آه... آه...
- أعيدي ..
- آه... آه...
- ضغط على صدغيها باصبعيه السبابة والابهام بقوة وهو يقول :
- هل تشعرين بألم ؟
- نعم
- أين بالتحديد ؟...
- في الناحية اليسرى
- يبدو أنك تعرضت للبرد لفترة طويلة ورأسك مكشوف أو لعلك غسلت شعرك ليلا ولم تجفقيه جيدا.
- هذا صحيح <http://Archivebeta.Sakhril.c>
- سأصف لك دواء يريحك تماما.. ما اسمك ؟.
- نورة
- اسم على مسمى.
- تساعد الدم الى وجنتيها عند سماعها لاطرائه فزاد وجهها توهجا وإشراقا.
- لا أظنك متزوجة ؟
- لا..
- غير معقول
- وصمت قليلا ثم عاد يسألها :
- أنت تلميذة إذن ؟

- كنت .. انقطعت عن الدراسة منذ سنوات بعد إحراري الشهادة الابتدائية.

- لماذا ؟

- والدي رجل صعب لا يؤمن بتعليم الفتاة.

- شيء لا يصدق .. وأنت ماذا كان موقفك ؟!

- بكيت .. توسلت، توسلت لديه ببعض الأقارب لكن دون فائدة، لا توجد بالقرية مدرسة ثانوية ولكي أتابع دراستي يجب أن ألتحق بالمعهد الثانوي بقابس وهو يرفض ذلك.

- ولكن ما علاقة كل هذا بموضوع مرضي يا حكيم ؟

- لا علاقة بالمرّة، إن هو الا مجرد فضول لا غير ..

وتناول ورقة خط عليها بضغ كلمات ثم أعطاها لها قائلا :

- لقد وصفت لك دواء جديدا سوف يريحك نهائيا من الصداع .. تناولني منه قرصا بعد كل وجبة. ثلاث مرات في اليوم، لمدة أسبوع.

كذلك قطرات الأنف .. ضعني ثلاث قطرات في كل منخر، ثلاث مرات يوميا كذلك لمدة نصف شهر ذهبي الى الممرض ليصرفه لك. واحرصي في المستقبل على أن تغسلي رأسك بالنهار، وأن تجففيه جيدا بعد ذلك. والآن يمكنك أن تنصرفي، أرجو أن أراك في الأسبوع القادم.

- ان شاء الله.

- مع السلامة.

- بالسلامة.

ومضى يتبعها بصره وهي تغادر المكتب .. إنها ساحرة من الخلف كما هي ساحرة من الأمام، كنتفيتها أردافها، ساقها.

أغلقت الباب وراءها ومضت، وقال في نفسه ونظره ما يزال معلقا بالباب متتبعها صوت خطواتها بالمر : (تراها تعود في الأسبوع القادم ؟ من يدري ..) ليس أمامه سوى الانتظار.

وفجأة يفتح الباب نصف انفتاحة ويطل منه عياد ليساله إن كان يريد في أمر ما، فيأذن له بالانصراف، ويسود السكون.

شعر بالارتياح.. إنه في حاجة الى الاختلاء بنفسه قليلا، استند برأسه الى الحائط واسترخى في مقعده، ورحل مع الخيال بعيدا، الى أيام الدراسة والشباب. الى أول لقاء له بهالة بمشرب الجامعة. كان لقاء عابرا. لكن المصادفة أثبتت أن يتكرر في اليوم التالي وبنفس المكان والزمان، وكانت البداية. شعر بانعطاف نحوها كما لمس منها ميلا إليه.

وتتكرر اللقاءات بينهما بعد ذلك داخل الجامعة وخارجها، لقد تعلق أحدهما بالآخر، حدث كل شيء بسرعة غريبة رغم تباين نهجهما الدراسي فهي طالبة حقوق وهو طالب طب علاوة على اختلاف طباعهما ومشاربهما، لكن الحب نادرا ما يخضع للمقاييس.

كانت هالة على درجة كبيرة من الجمال والذكاء، قوية الشخصية بعيدة النظر، شديدة الاهتمام بنفسها حادة المزاج بعض الشيء منطلقة في غير تهور، أما غسان فهو بدين لكنه لا يخلو من وسامة. هادي الطبع، لين الجانب، مسالم مرحا.

اتفقا على الزواج بعد تخرج غسان، أي بعد سنة ونيف.

وتتابع عجلة الأيام دورانها المنتظم الرتيب، يتخرج غسان ويلتحق بالعمل بأحد مستشفيات العاصمة ويمر شهر، اثنان، ثلاثة، ويتسلم جرائته ويشرع وهالة في الاستعداد للزفاف.

كان غسان سعيدا الى درجة التوتر، إنها المرة الأولى التي يشعر فيها بالسعادة الحقيقية.

وفي يوم بينما كان وهالة يخترقان أحد شوارع المدينة عاندين من السوق وهما في قمة الفرح والابتهاج إذا بصوت الرصاص يلعلع في المكان، تتهاوى هالة ويسقط ثوب الزفاف من يدها، ويسارع غسان باحتضانها وهو يصرخ كالمجنون :

- هالة !! هالة !! هالة !!

ويشاهد بقعة من الدم تنتشر على صدرها فيتناثر قلبه
شظايا.

تتوقف السيارات، ويهرع بعض المارة نحوهما..

تفتح هالة عينيها وتنظر في وجهه المربد الحزين، وتقول
بصوت خافت متقطع :

- يؤسفني أن أموت كما تموت الكلاب والقطط الضالة على
أرصفة شوارع هذه المدينة المجنونة مؤلم حقا أن يموت الانسان
دون مبرر، وليس نودا عن هدف نبيل أو قضية عادلة، وداعا..
وتحضر سيارة الاسعاف ولكن بعد ماذا ؟

ومرة أخرى يجد غسان نفسه يسقط في مطاوي دوامة
الأحزان والفراغ من جديد.

لقد ولد الشقاء معه، والمرجح أنه سيظل مرافقا له طوال
أيام حياته.

مات والده وهو ما يزال جنينا في بطن أمه، فقد أمه وهو
دون الرابعة، استشهد شقيقه الوحيد منذ بضع سنوات، وها هو
اليوم يفجع في حبيبته.

تدلمهم الدنيا من حوله ويطويه فراغ سحيق لا غور له، يختل
توازنه، كانت الصدمة أكبر من أن يحتملها فتهاوى كجرف هار
وسقط مريضا.

لازم الفراش أياما كان خلالها موضع عناية واهتمام بعض
رفاقه في الجامعة. ولا يلبث أن يتماثل للشفاء. وتر الأيام تباعا
غبراء كالحلة متجهمة.

أغرق نفسه في العمل بحثا عن السلوى والنسيان،
واستطاع أن يتخطى أزمته لكنه لم يستطع التخلص من ذلك
الاحساس بالمرارة.

تنهد في حرقه واستوى في جلسته، أجال النظر فيما حوله
كأنه يرى المكان لأول مرة. تذكر المريضة الشابة وشعر بقلبه يخفق
بشدة بين ضلوعه.

ترى هل يبعث الحب الذي اغتيل من جديد ؟

لم يكن يتصور يوما أن التشابه بين البشر يمكن أن يصل
إلى حد التماثل الكلي في غير التوائم الحقيقيين. إنها هالة في
اعتدال قامتها ولون بشرتها وملامح وجهها وسواد عينيها،
وضمور خصرها، واكتناز صدرها، وطول شعرها.. إنها تشبهها
حتى في نبرات صوتها وطريقة كلامها.

وظل ينتظر اطلالتها عليه بلهفة وقلق.

انقضى الأسبوع الأول ولم تحضر، تضاعف قلقه واكتنازه.

مر يوم آخر.. فزاد عذابه وانشغاله، وفي اليوم الموالي
جاءت بكل سحرها وجمالها وأنوثتها، وما أن رآها واقفة أمامه
حتى نهض من مقعده وتقدم نحوها مسلما طلق المحيى باسم الشفر،
ومد إليها يده مصافحا وكله رغبة في أن يحتويها بين ذراعيه،
واعترته رعشة عذبة ويده تلامس يدها، وقال بعبثها :

- لماذا تأخرت كل هذا الوقت ؟..

- ظروف

- كدت أياس من مجيئك

يدعوها إلى الجلوس وهو يتراجع إلى الخلف :

- تفضلي.. اجلسي لا شك أنك تعبت من السير لقد أخبرني
عياد أنكم تقيمون بعيدا من هنا.

- ليس كثيرا

- كيف حال الصداق معك الآن

- الحمد لله لقد خفّت حدته كثيرا عن ذي قبل.

- بسيطة، هذه المرة سوف أريحك منه نهائيا إن شاء الله.

- يا ريت يا حكيم

وصف لها دواء جديدا وقال، وهو يضع الورقة في يدها :

- أرغب في التحدث اليك قليلا..

- تفضل..

- ليس الآن.. لا يليق أن استقبلك معي أكثر من هذا فما يزال هناك بعض المرضى في الانتظار، لذلك سأطلب منك البقاء بالخارج ريثما أفرغ من فحصهم وإن سألك عياد عن سر بقائك قل لي أنني الذي طلبت منك ذلك.

لن أدعك تنتظرين طويلا سأفرغ من فحصهم سريعا.

- هل تريدني في أمر هام ؟

- نعم

- عمّتي تقيم قريبا من هنا سأذهب لزيارتها

- هذا أفضل

نظر في ساعته ثم قال :
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- الآن التاسعة والنصف، تعالي بعد ساعة

غادرت المكتب وكلها تساؤل وحيرة.

وبانقضاء الساعة عادت، وجدت عياد بالبواب فأخبرها أن الطبيب في انتظارها منذ بعض الوقت.

طرقت باب المكتب ودخلت، استقبلها باسم الشجر متهاول الأسارير وأشار إليها بيده أن تجلس.

جلست ونظرت اليه مستطلعة، ويخيّم الصمت لحظات ثم يقول غسان وقد بدا مترددا بعض الشيء ووشت نبرات صوته بما يعتمل في داخله من صراع :

- أحب أن أروي لك قصة حياتي .. أرجوك لا تسأليني لماذا ؟

وستعرفين السبب بعد أن تستمعي اليها.

إنه أمر غريب ولا شك أن أفضي إلى فتاة غريبة عني بتفاصيل حياتي الشخصية خصوصا أنني أراك للمرة الثانية فقط ولا شيء يربطني بك وأكاد لا أعرف عنك شيئا، من حقك طبعاً أن تتساءلي وتعجبي من تصرفي هذا ولكن عندما تعرفين السبب سوف يزول عجبك واستغرابك وتجدين لي عذراً.

وروى لها حكايته من البداية..كانت كل خلجة في صوتها تقطر ألماً، وجهه قد اكتسى مسحة من الحزن الدفين، ونز جبينه عرقاً.. ولما يفرغ من سرد حكايته مع الأيام يسود المكان سكون ثقيل.

وتظل نواراة تتطلع اليه في اشفاق وحيرة دون ان تنبس بحرف. ولا يلبث أن يعود إلى القول وقد بدأ عليه التردد مرة أخرى:

- تلك هي قصتي. ولعلك عرفت الآن سر اهتمامي بك.. هل تقبلينني زوجاً؟
تهز المفاجأة الفتاة ويضطرب فيها كل شيء.. وتظل تحمق فيه واجمة دون أن تحير جواباً.

ويلاحظ ما أصابها فيقول لها ملطفاً من وقع المفاجأة عليها :

- أرجو أن تقبلي الأمر بمنتهى البساطة.. أنت الآن في سن الزواج، ومن الطبيعي جداً أن يتقدم أي واحد لخطبتك. ولعل الغريب في الأمر بعض الشيء أن يكون المتقدم اليك هو أنا. طبيب كهل لا وطن له يكاد لا يعرف عنك شيئا ولا تعرفين عنه شيئاً...تكلمي أرجوك.. قلولي أي شيء...

تنتفض نواراة في مقعدها وترد بصوت متلعثم :

- لقد فاجأتني بطلبك، وليس بإمكانني أن أجيبك بأي شيء في الوقت الحاضر، دعني أفكر.

- معك حق.. فكري على مهلك.. ثلاثة أيام تكفي لرد الجواب؟.

- لا أعرف
- إنها كافية وزيادة على ما أعتقد
- أحاول
- سأنتظرك بعد ثلاثة أيام .
- إن شاء الله، والآن أسمح لي أن انصرف، لقد تأخرت كثيرا.

- تفضلي، رافقتك السلامة، لا تنسي موعدنا.

حيث ومضت شاردة الفكر، مشدودة الأعصاب، موزعة المشاعر.. ما حدث أمر لا يصدق، هو الى الحلم أقرب منه إلى الحقيقة.

وتمر الساعات والأيام على غسان طويلة ثقيلة معلقة.

كان كالمتهم الذي ينتظر صدور الحكم عليه في قضية خطيرة.

وجاءت في اليوم الرابع لتزف إليه النبا السعيد.

وان هي إلا أسابيع قليلة حتى شهدت القرية حفل زفافهما الذي لم تعرف له مثيلا من قبل. وتمضي الحياة بالعروسين سعيدة هانئة، شغلها غسان بحبه ورعايته، وأغدق عليها دون حساب رغم بخله الشديد، اشترى لها كل ما كانت نفسها تتوق إليه من حلي وثياب وأثاث، ذهب بها في رحلات ترفيهية هنا وهناك، أقام بها في أجمل النزل.

لقد صارت كل شيء في حياته، وحرصت بدورها على توفير كل أسباب الراحة والسعادة له وإن لم تشعر نحوه بالحب وهي تعلم أنه هو أيضا لا يحبها لذاتها وإنما هو يهوى فيها حبيبته الراحلة. وهو ما يؤكد إصراره على مناداتها باسمها رغم اعتراضها على ذلك. لكنها مع الأيام تعودت ولم يضرها أن يدعوها بغير اسمها.

وينقل للعمل باحدى مدن الواحات المشهورة بكثرة نخيلها وجودة ثمارها فيعز على نواره أن تفارق أهلها وصويحباتها

ومرتع صباها وشبابها لكنها لا تلبث أن تشعر بالراحة والرضا،
لقد وجدت نفسها بمقامها الجديد أكثر حرية وانطلاقاً.

كانت بقريتها لا تكاد تفارق المنزل إلا لزيارة أسرته أو
بعض أقاربها، وكانت تضطر لارتداء الثياب الطويلة الفضفاضة،
والى تغطية رأسها عند خروجها من البيت الى أي مكان.

وبسرعة غريبة اندمج غسان في أوساط أهل المدينة وتعرف
على أعيانها وذوي الحل والربط فيها وصار له منهم أصدقاء.

استضافوه، واستضافهم، توثقت العلاقات بينه وبينهم
وأصبحوا يتبادلون الزيارات بصورة منتظمة.

وقد عرف أهل تلك الواحة بتهالكهم على الجنس وتناول
المسكرات وإقامة الولائم والمآذب في كل المناسبات، وقد حرص
أصدقاء غسان على اصطحابه معهم الى تلك الولائم، واستغل
بعضهم تلك العلاقة فعمدوا الى التقرب من زوجته الشابة
الحسنة.

أغرقوها بالهدايا الثمينة المجلوب بعضها من الخارج.

وكانت نوازة مهينة بطبيعتها للانحراف فسرعان ما سقطت
ومع الأيام استمرأت اللعبة واستهوتها التجربة فتعددت عشاقها،
وصارت تتخير منهم من هو أكثر مالا ووجاهة، وتجمع لديها مال
وذهب كثير. وبدأ الهمس يدور حولها. لكن زوجها ظل غافلاً عما
كان يحدث ويقال و - الزوج آخر من يعلم - عادة حسب الرأي
الشائع.

وبلغها ما يذيعه الناس عنها فاحتاطت للأمر.

قللت من الزيارات ومن الخروج الى السوق.

وقررت أن تلتقي بعشاقها بعيداً عن الواحة فكانت تستأذن
زوجها في السفر الى هذه المدينة أو تلك لشراء بعض اللوازم
الضرورية أو لمراجعة طبيبها الخاص في أمراض النساء الذي
يشرف على علاجها منذ بعض الوقت لمعرفة أسباب تأخر حملها.

ولم تلبث تلك الاشاعات أن تصل الى أسمعاع غسان فقتطحنه طحنا، لم يلاحظ على زوجته أي تصرف يبعث على الشك والريبة، لكن الشك يعيش في رأسه بعد الذي تناهى اليه ويحول حياته الى جحيم يصارح نواره بما في نفسه وبما يروجه الناس عنها وعنه. فتحتد وتثور وترفض بشدة الاتهام الموجه اليها مدعية بأن كل ما يقال عنها إن هو إلا محض افتراء هل يصدقها هي أم يصدق الناس ؟ وأين هي الحقيقة ؟

ويستمر الحوار بينهما متخذاً نسقا تصاعديا ودون أن يدري يمد يده ويصفعها فتثور ثائرتها وتصرخ في وجهه وتقول له : إنها لا تحبه، وهي تعلم أنه لم يتزوجها حباً فيها، وقد حاولت كثيراً تجاهل تلك الحبيبة الشبح في حياتها لكنها لم توفق، وأي زوجة تربطها بزوجها علاقة غير طبيعية معرضة للانحراف والخطأ.

ينتابه إحساس بالمهانة والمذلة، وفجأة يأخذ في تحطيم كل ما وقعت عليه يده وهو يسب ويلعن، بينما تظل هي ثابتة مكانها في جمود، ويغادر البيت ليفرق همومه وأحزانه في كؤوس الخمرة مع رفاقه رغم أنه هائل يشك فيهم جميعاً.

وأصبح ذلك العيدته كل مساء وتخلو إلى شربه مدمن.

و ذات يوم حمل اليه البريد رسالة من فرع المنظمة يذكرونه فيها بقرب انتهاء مدة عمله وبأن يهيئ نفسه للعودة الى الشرق. ما أسرع ما تمر الأيام ! لقد نسي في غمرة انشغاله ومتاعبه كل شيء.

كان يأمل أن تعدد فترة تعاقدته أعواماً أخرى.

لم يكن يرغب في العودة الى هناك رغم الشرخ العميق الذي أصاب حياته الزوجية في الصميم. ليس بإمكانه أن يرفض أو يعتذر؛ ولعل من الأجدي له أن يعود بعد الذي حدث.

تحدث الى نواره في الأمر وطلب منها أن تستعد لمرافقته مبدئياً تمسكه بها رغم كل شيء واعداء إياها بنسيان كل ما جرى.

لكن نؤارة لم تستجب لرغبته وما يدعوها اليه رافضة فكرة
مغادرة الوطن من أساسها، وطلبت منه أن يفترقا في هدوء.

وأمام ثباتها على موقفها لم يسعه في نهاية الأمر إلا
الانصياع لارادتها.

يفادر البلاد وفي قلبه جرح ينزف، وفي ذاكرته صور
وأصدقاء وأحداث لا تنسى وقصة حب ولد ومات مرتين.

ومنذ ذلك الوقت انقطعت أخباره، أما نؤارة فعادت إلى
القرية فاستقبلتها أسرته ببرود وفتور.

ويتقدم أحد الشبان لخطبتها فتقبله دون تردد رغم فقره
المدقع، أحبته وأحبها وتزوجا.

كانت راضية قانعة بحياتها الجديدة لكنها مع ذلك لم تستطع
مقاومة التفكير فيما مضى من أيامها حيث كانت صور تلك الأيام
الناعمة المرفهة تلح عليها وتعكر عليها صفو حياتها الخاوية
العسيرة، لقد أنفقت كل ما كان معها من مال على أسرته وعلى
نفسها وعلى زوجها العاطل كما اضطرت لبيع بعض القطع من
حليها.

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

ودون وعي تجد نفسها تتوق إلى الخروج من وضعها الصعب
وتحدي واقعها المتردي.. لا يمكن أن تستمر حياتها على ذلك النسق
إلى ما لا نهاية.

تطلب من زوجها أن يسمح لها بالخروج والبحث عن عمل
بأحد النزل السياحية بالقرية، يمانع في البداية لكنها تمضي تلح
عليه وتترجأه فيوافق آخر الأمر.

تجد عملا بالنزل الكبير الذي شيد حديثا بالقرية.

وان هي إلا بضعة أيام من التحاقها بالعمل حتى بدأ بعض
موظفي النزل في مطاردتها، ويعاودها مرضها القديم وحبها
للمال، وفكرت وقدرت ثم قررت.

لن تسلم جسدها إلا لمن يكون قادرا على تلبية كل رغباتها..
إنها جميلة وشابة وكل رجل يرغب في الظفر بها.

لكن يجب أن تكون أشد حرصا وأكثر حذرا عن ذي قبل. فهي
في قرينتها بين أهلها وذويها وكل العيون مصوبة عليها تترصد
حركاتها وما يصدر عنها.

وبدأت مرحلة جديدة في حياتها. ورغم كل ما اتخذته من
أسباب الحيلة والسرية أخذت أنباء مغامراتها تتسرب الى أسماع
أهل القرية ويصاب زوجها بأنهيـار عصبي حاد لا يعرف أحد سببه
ومأثاه، والراجع أنه ناتج عما يتناقله الناس عن سيرة زوجته.

و ذات يوم وجدوه منتحرا.

تهتز القرية وترتج إنها أول حالة انتحار تحدث فيها.

تطرد نواره من عملها كما تطردها أسرتها وتتبرأ منها
فتقيم في كوخ منعزل ويقاطعها الجميع.

ورغم كل ما لحق بها لم تفكر في مغادرة القرية.

وتمر بها الأيام كالأحـاء قاتمة، يداهمها المرض، فيذوى عودها
ويذبل جمالها. وتقبع في كوخها الصغير تعد الأيام والليالي،
تتأمل في حاضرها وتجتر ذكرياتها، تنتظر في لا مبالاة ما
ستحمله اليها الأيام القادمة.

محمد الخموسي الحناشي

ألقيت
بمحفطتك جانبا وقد دقت
الساعة دقتها التاسعة
ليلا، ارتدى ابنك يحضنك
بيديه الصغيرتين، قال بنبرة لطيفة
اختلج لها قلبك : «بابا» رفعت
ولدت ورميت به في الفضاء ثم
تلقت..بلغ سمعك صوت ابنتك :
- دائما يحب ابنه أكثر..

كابوس

وضعت الطفل على الأرض، احتضنت ابنتك و رميت بها في
الفضاء أيضا وتلقتها.. أحسست بوجع في ذراعيك.. ضغط في
رأسك.. ألم شديد.. عشر ساعات كاملة قضيتها في التدريس..
نصفها مقابل مرتبك من الحكومة ونصفها من أجل استجداء بعض
الاوراق من ذوي اليسار.. للمرة الألف تقسم لنفسك إنك لا تريد
ان «تستكرش».. ولكن.. يحضر المقص فيجعل الجملة مبتورة
بدون اسم ولا خبر..

فتحت الحنفية لتغسل يديك.. لكن الماء لم ينسكب. التفتت
إليك زوجتك ذليلة وهي تقول :

- تناول عشاءك.. أولا...

وقبل أن تنبس بكلمة رفعت ابنتك الصغيرة صوتها..

- لقد قصوا علينا الماء...

أحسست بالشبع دون أن تضع شيئا في فمك.. جلست
منهوكا وقلت :

- وهل عملها الـ..

- هدى من روعك.. لا عليك..

للماء قصة.. اكتريت بضعة أمتار مربّعة لتأويك وزوجتك وابنيك.. المطبخ في غرفة الجلوس، المرحاض في غرفة النوم.. ليست صورة قصصيّة، وأنما هي حقيقة البيت الذي تدفع شهريا ثلث مرتّبك بالتعام والكمال ثمن إيجاره.

السيد المحترم الذي كرى لك هذا البيت يسكن بجانبك في قصر ذي طابقين.. يترك الحنفية تجري ليلة كاملة لري أشجار حدائقه، يريد منك أن تدفع نصف معلوم الماء.. دفعت مرّة أولى وثانية وثالثة.. أحسست بجيبك مثقوبا.. الدراهم القليلة الباقية من مرتّبك لم تعد تدفع عنك جوعا.. فتمردت.. طالبت من صاحب البيت أن يجعل لك عدّادا مستقلا قهقهه صاحب البيت وهو ينفخ دخان سيقارته الفاخرة ويرشف شايا من الكأس المذهبة. تذكرت أنك خرجت ليلتها مطأطأ الرأس دون أن تقول كلمة. السيد صاحب البيت اقننى محرّكا للبشر الموجود في الحديقة وربطه بشبكة ماء منزله الخاص.. لمدة أربعة أشهر والماء منقطع.. كانت الحنفية تسكب الماء قطرة قطرة.. تملأ سطلًا بعد ساعة ونصف.. لكن الليلة حتى القطرة قد انقطعت.. هل تألّبت عليك شركة الماء وكبست المفتاح أكثر.. ومن أخبر الشركة أن تسرّبًا ضئيلا من الماء مازال يسمح بتسرّب قطرة تكاد تروي ظمأ.. همّت ابنتك بالنطق ولكن أمها أومأت إليها.. تفتّنت الى هذه المحاورة الصامتة.. قلت لابنتك بنبرة جمعت بين الشدّة والرجاء.

- ماذا أردت قوله يا ريم..

- لقد رأيته يعالج الأنبوب مع لحام..

جريت نحو الأنبوب، عالجت حتى أتمكّن من فكّه.. الأنبوب يتفرّع الى أنبوبين آخرين.. أحدهما أكبر من الآخر.. وجدت مليما يسد الأنبوب الصغير وقطعة خمسة مليمات تسد الأنبوب الأكبر.. نزعت القطعتين وأرجعت الأنبوبين.. انسكبت القطرة الباقية مرّة أخرى..

قالت لك زوجتك :

- ها هي قطرة الماء قد عادت.. تناول عشاءك.

أجبت وأنت تتحاشى النظر الى زوجتك

- إنني شعبان

- لكنك لم تتناول شيئاً منذ الغداء..

- أوف !! قلت لك ليست لي رغبة في الطعام..

هم ولدك باحتضانك فنهرته.. أرادت ابنتك التخفيف عنك..
صحت في وجهها.. ارتفع الألم في رأسك.. أحسست بغص في
أمعانك.. ما زال عليك أن تعمّر دفتر إعداد دروسك.. وتحرير
مذكرات أربعة دروس.. وإصلاح التعابير المكسرة لتلاميذك..
رفعت رأسك تنظر في الساعة المعلقة في الجدار.. العقرب الصغير
يشير الى العاشرة والعقرب الكبير يقترب من الثانية عشرة..

فتحت أدواتك ونشرتھا على طاولة الطعام بالمطبخ.. ليس
شمة مشكلة، بإمكانك النظر الى التلفزة في غرفة الجلوس.. ألم
تسبق الإشارة الى أن المطبخ في غرفة الجلوس كما أن المرحاض
في غرفة النوم.. أحسست برغبة في دعوة زوجتك للنوم مبكراً..
لكنك عدلت عن ذلك.. عليك على الأقل أن تجلس أمام طاولة الطعام
التي انقلبت مكتبا لا أقل من ثلاث ساعات.. أي أنه عليك أن
تستلقي على فراشك في الواحدة بعد منتصف الليل.. وعليك أن
تستيقظ على الساعة السادسة والنصف على أكثر تقدير لتكون
أمام تلامذتك في الساعة السابعة والنصف بالضبط..

رفعت بصرك فجأة... صحت بأعلى صوتك..

- اطفئوا التلفاز وناموا..

أحسست بالاندحار وأنت ترى ديكور الشريط.. حضرته
دكتور بيه أد الدنيا وهو عاوز يتفوز البنية الصغيرة.. ومادام
دكتورا.. وما دام هو بيه أد الدنيا فان المخرج أصرّ على استفزازك

بديكور أقل تحفة فيه تساوي أجرتك لمدة سنة عملاً...

رميت بكل ما فوق الطاولة فتبعثر على أرض المطبخ..
أخذت علبة السقائر. أخرجت لفافة أشعلتها بعصبية ونفثت
دخانها.. أحسست بدغدغة في رأسك. فركت عينيك أغمضتهما
واضعا وجهك بين كفيك..

رأيت البلدية شامخة.. دخلتها حاثا خطاك لتسأل عن كيفية
إحضار الملف الفني لبناء منزل على الأرض التي اقتنيتها منذ
بضعة أيام.. دفعت بعض ثمنها حاضرا والجزء الكبير الباقي
جعلته أقساطا بضمان صكوك بريدية..

وقفت أمام العون وقد ألقيت عليه تحية الصباح بكل أدب..
لكن العون لم يكلف نفسه برفع رأسه ليرد عليك تحيتك.. هممت
بالبحث في محفظتك عن مذكرة الاخلاق لتتأكد من تدعيم التحية
والرد عليها بمثلا أو بأحسن منها أي آية أم حديث.. لكنك لم
تجد المحفظة.. أعملت المسألة.. التمسيت لأخيك عذرا.. استعددت
ليكون قولك بلطف :

- كيف يمكن إحضار ملف فني لبناء منزل ؟

- أين توجد القطعة ؟

قالها العون دون أن يرفع رأسه عن الورقة.. لم يكلف نفسه
مشقة النظر الى محدثه الذي هو أنت.. قلت :

- في المنطقة المسماة سانية بن نصيب

- لا.. هذه المنطقة ممنوع البناء فيها

- ما السبب في ذلك ؟

- لم تقع تهيئتها بعد.

- ماذا تقصد بالتهيئة ؟

- قنوات التطهير مثلا.

- لكنني أسكن الآن في نهج فخم به منزل شخصيات وليس فيه قنوات تطهير.

- قلت لك ممنوع.

- لكن هنالك منازل مبنية.

وقتها فقط ضرب الطاولة بالقلم الذي في يده بعصبية وقال :

- هل تريد اجراء تحقيق معي ؟!

- أين السيد رئيس البلدية ؟

- ليس هنا.

- من ينوبه ؟

- الكاتب العام..

جلست أمام الكاتب العام.. جعل أمامك الصحراء جنة.. طلب منك إمضاءات السكان.. ثم ستوفر تشتت البلدية في المسألة... هرولت نحو الحي الذي توجد فيه أرضك.. جمعت الامضاءات مع اثبات أرقام بطاقات التعريف.. حررت مطلباً أنيقاً لفظاً ومعنى.. حاولت أن يكون الخط أنيقاً أيضاً.. هرولت نحو البلدية.. قدمت المطلب.. بعد نصف شهر أعلمك الكاتب العام بالبلدية أنه لم يتسلم شيئاً.. حين ذكرته تواضع لي يقول :

- ربّما ضاع..

غادرت البلدية وفي رأسك فكرة..

كنت جالسا على حجرة تمتع نفسك بالنظر الى ارتفاع جدران بيتك الذي تداعب فيه طفليك دون أن يهدّك أحد باخراجه منه أو بقطع كهرباء أو ماء.. كنت تتأمل البناء كيف يسوي الحجرة ليضعها بجانب الحجرة.. من حين لآخر تبدي ملاحظة راجيا من البناء ألا يغضب لملاحظتك فيبتسم قائلا..

- لاحظ ما شئت فان بالي واسع..

فجأة وقفت سيارة الحرس الوطني.. نزل منها تسعة أعوان
بأثوابهم الخضراء ومقابض أسلحة بارزة من أعمادها.. نزل أعوان
البلدية من الشاحنة الأخرى.. طفقوا يجمعون أدوات البناء..
تجمعت نساء الحي.. صحن.. احتجن.. قلن جميعا :

- ماذا فعل المسكين حتى تمنعوه من البناء.. وتحجزوا
أدواته..

كان الجميع يحتجون الا أنت.. لازمت مكانك.. ما تحركت..
ولا وقفت.. ولا شاركت في نقاش.. كانوا يجمعون الادوات وأنت
تقرأ آية الكرسي والمعوذتين والصمد وغيرهما.. كنت تسبح
بالرب الأكبر.. كدت تبسم وأنت ترى فادنا لم تقع عليه عين
أحد الاعوان.. كنت تهم بالاشارة لأخذه.. احتج عامل.. صفعوه
وأركبوه سيارة الحرس.. جاءك البناء وطلب منك التدخل فأعلمته
أنه سينزلونه.. سألك كيف ؟ قلت مقهورا :
- ان شاء الله سوف ينزلونه..

سبحت ودعوت وكبرت في سر.. أنزلوه.. ألج أعوان
الحرس وأعوان البلدية في معرفة هذا الذي يبني بناء فوضويا..
أصر الجميع نساء وعمالا بان أحدا منهم لا يعرف لصاحب البناء
اسما ولا هوية. رمقك أحد الاعوان متفحضا.. تلهيت عنه
بتسبيحك.. لم يكلمك أحد.. اذ ان الجلوس هادئا صامتا لا يعد
جريمة..

أقسم الجميع إنه سوف يهدمون البناء.. انصرف
الشاحنتان.. ذهبت أنت لتأتي بأدوات بناء جديدة بعد ساعة
نشطت حركة البناء من جديد..

تناهى اليك صوت زوجتك وابنتك :

« تصبح على خير.. »

فمغمغت بكلمات ومازال رأسك في كفيك ومازالت عيناك
مغمضتين.. ومازالت تنظر الى حركة البناء نشيطة..

فجأة دوى في سمعك قسم الاعوان بأنهم سوف يهدمون
بيتك.. سمعت أزيزا.. المحرك كبير، رأيت البولدوزر تتجه نحو
بيتك.. تجمعت النسوة في الحي يحتجن.. قالت واحدة :

- ماذا جنى المسكين حتى تهدموا منزله ؟..

قال لها أحد الاعوان بصوت أجش :

- وما دخلك أنت..

ارتفعت تحت البولدوزر وصحت :

- دوسوني قبل أن تدوسوا مسكني الذي مزجت ملاطه بعرق
أعصابي.

ارتدى عليك عونان.. أمسك واحد من اليد اليمنى وأمسك
الثاني من اليد اليسرى.. جذباك ألقيا بك بعيدا وقد هددًا :

التزم الهدوء والا فانك سوف تحال بتهمة تعطيل عمل
السلطة...

همت بالصياح، فقدت صوتك أحسست برغبة في البكاء.. لم
تجد دموعا.. أردت أن تتقيأ وجدت جوفك خاويا..

حين دكت البولدوزر البناء دكتها الاولى جريت تأخذ
صفحة أخفيتها في «سكومة» بجانب بنايتك، رميت الصفحة
على البولدوزر وتبعتها بعود ثقاب يلتهب - اختلط بنزين
صفحتك بينزين خزان البولدوزر.. سمع دوي كأنه البركان..
ارتفعت الشظايا الملتهبة تتطاير واللهب يتساقط من جوانبها.

حين أمسك الحارسان القويان يدفعاك الى يد الجلاء، حين
رأيت دائرة الحبل تتأرجح ليوضع فيها عنقك صحت صيحة ارتجت
لها جدران البيت الذي تقيم فيه.. فزعت زوجتك.. جاءت من

فراشها تجري أيقظتك.. وجدت حلقك جافا ولسانك جافا.. اتجهت
نحو الحنفية لتروي ظمأك فلم يرتو لك ضمعا لان الحنفية كانت
تسكب الماء بالقطرة.. ملأت زوجتك من السطل إناء وسقتك..
ألقيت نظرة على الساعة فاذا هي تشير الى الثالثة فجرا.. نظرت
الى أدواتك فاذا هي مبعثرة.. انحنيت زوجتك تجمع أوراقك.

خرجت بسرعة.. اتجهت جريا نحو البناء تتفقده.. لم تجب
زوجتك حين سألتك الى أين أنت ذاهب.. كنت تخشى أن تحسبك
مجنونا..

عبد الوهاب الفقيه رمضان



اللُّوحَة

المسندة إلى حمالة الخشب
متلهفة إلى مزيد من
الطلّاء والاضواء والظلال
المنسكبة من نفسي المضطربة،
بينما أظلّ باحثاً عن مزيج من
الالوان المتدرّجة الرقيقة الصّاخبة
أخلطها على الملون وأعيد خلطها
علّني أظفر بالوان ترضي ريشتي،
فتحمل بها، وتوشح صدر اللُّوحَة
المتلهف الظّامى: لكنّ الانابيب

المروّة والإطار

المحتضرة الباهتة تمنحني كلّ ما أريد.. تراوغي.. تهزأ مني،
تتوارى، ولا تفرغ من أجوافها إلّا سواقل لزجة ذات أصباغ قديمة
والوان مألوفة، كلّما أحطّ عليها نظراتي، والمسها بلسان الريشة
تتناءب لها دماشي قلقة، وتدقّ أجراس الصّداع في رأسي متبعة،
وتتهاطل مني سيول العرق حاجبة عني الرّؤية، مغلفة المشهد في
غمامة شهباء... وتتداخل الأشكال في اللُّوحَة... تتحرك متراقصة
متموجة كلعع السّراب، فتنتابني حيرة قاتلة، تدفعني لأقلع شعري
وأحطّم الحمل وما عليه وما أحاط بي من أدوات في المرسم الضيق
الخانق.

إنّ ما يضطرم في الصّدر همّ ثقيل، لو ظلّ فيه حبيسا
لدمّرني تدميرا وسحقني هباء منثورا. فمتى الخلاص من الأوجاع
؟ متى يولد مشهد قضيت الشهور والأسابيع الطّوال أزعاه
وأنميّه وأتوسّل إليه... أسكبه قطرة قطرة، على الخشب، أملا أن
يكتمل في لحظة ما جسدا نظرا، يتألق بالوان الحياة ؟!

وأتيه في بحران التّفكير... أمسك بيد لا مبالية الريشة

لأسمحها بمندبل ملطخ، وأنظر إلى أصابعي المبقعة المرتعشة بقايا
الالوان ولفح السجائر، فتظل من باطن راحتي شرايين متلاصقة
مترافقة، معبأة بسوائل زرقاء داكنة؛ وتعبر خيالي عبور البرق
فكرة مجنونة... أمسك كأس الفارغة بين أصابعي، أخنقها خنقا،
أضغط عليها بكل حيرتي وغضبي... فتصدع الكأس، وتتكسر
شظايا في كفي ويتقاطر سائل أحمر أرجواني مزهر على الملون،
سرعان ما تمتزج نقطة بحبات العرق الشفاف، ويتحلل الجميع في
بقايا علب الالوان المسكومة المتخثرة؛ ويتولد من التزاوج الغريب
لون لماع حميم مبرنق، ترقص له الريشة ابتهاجا ومرحا، وتنففس
في لجه الممتعة طفلا سابحا حالما، أو طائرا مرحا في يوم ربيعي
دافئ.

ترقص الريشة على بستان الخشب مرحة باسمة متألفة،
ضاجة بحركات سريعة حينما سرعة الزلزال، هادئة حينما آخر هدوء
الرداذ، ملامسة أرضا ظامئة ساغبة. وتحتجب خطوط قاسية
والوان أصلية وتنشأ مكانها تعرجات رفيقة، وأصباغ متدرجة...
وتتواصل رحلة العذاب لذيدة ممتعة متعجلة الخطى نحو أفق
قزحي يتربع على عرشه وجه أنثوي نضر يلوح إلي من بعيد، كنت
انتظرت طويلا أن يخطول جميع الوجوه الجميلة التي عرفت
وتمنيت، ناطقا بالحياة يذوب حسنا ويحترق شظايا مدمرة...
وددت أن تتجمع فيه صور بلقيس والكاهنة وموناليزا، وقامة
عليسة وشجرة الدر وخضر شهرزاد وحوريات الجنة جميعا، طيف
حواء جديدة لم تر عيناها النجلوان الحياة بعد... مزيجا من الخمرة
والخصب والنماء، امرأة مهلكة مؤنسة، تسيل في الحلق الظامئة
سلسبيلا، تعطر الكون عبيرا وسلاما وحنانا، وتزيل عن النفس
صديد الانقباض.

تأملت المشهد مليا وقد كاد يكتمل، رميت بالريشة جانبا،
واحتضنت بنظراتي المولود الجديد الذي صنعت، تائها في دروب
تقاسيمه الرفيعة، عاشقا بشرته الناعمة الملساء، منبهرا ببريق
العينين العسليتين، أكاد أعصر عصرا الخضر الرفيق الدقيق
السائل رقة وحسنا. ثم أجتو على الأرض متعبا منتشيا، وقد

ظفرت برحيق الحسن ونسغ الجمال وصفاء الأنوثة، وأشعل لفافة سمراء أنفث منها دخان الارتياح، وأرتشف ثمالة كأس باردة، وأمسح عرق التوتّر؛ أحك رأسي الشعثاء وذقني المشوكة، باحثاً عن اسم أطلقه على لوحتي التي حملتني وحملتني مثل سابقتها في رحلة اللذة والألم...

وبينما تتبّيه النفس في دروب الأضواء والظلال والتفكير، وتتداخل في عينيّ ألوان الأصيل وغيش المساء، وأسبح في ضباب حبيب... تتعلم اللوحة أمامي، تظهر منها يد ناعمة رخصة.. تطلّ راحة أنثوية تنادي، تتلظى شوقاً للخروج والانعتاق من الفضاء الأملس، وتحرك الأنامل أمامي حائرة مستنجدة مستعطفة...

وينتابني ذهول غريب من هول المفاجأة، وأشكّ فيما أرى : غير معقول هذا الذي يجري أمامي! لعليّ تائه أتخيّل، أو أنني فقدت الصواب من الإعياء أو أنني أحلم حلمًا مخادعاً؟

وأستعيد فكري الضائع رويداً رويداً، مدركاً حقيقة ما كنت يوماً أتوقع حدوثها أبداً، وأرى الخطوط المجردة والبقع المتناثرة تتجمّع جسداً أنثوياً حالماً... وتمتد اليد الناعمة نحويّ ثاقبة الخشب الملون متوسلة إليّ، فأمسكها وأحس النجدة إليها، وتنزل من اللوحة حسناء كاللؤلؤة متهادية، رفيقة الخطو، باسمه الثغر، يشعّ من عينيها نور الحياة؛ وينظر أهدنا إلى الآخر نظرات الود والعشق والانبهار.

وأمسح عينيّ متطلّعين مستفهمين غير مصدّقين ما يجري، لكنّ خيال «فينوس» التي صنعت بعروقي ودمائي ظلّ قائماً أمامي كأننا يزخر بالحسن والحياة والإشراق.

ويرتجف رأسي المتعب بزغردات الفرحة والخصب والنماء... تصرخ كلّ خلية من جسدي صرخات القدرة على التّعالى والفعل الخلاق... ترفرف أجنحتي، فترفعني من أرض العباد الى ذرى السماء العالمة، فأؤمن بالفن حقيقة لا جدال فيها.

سأطلق عليها اسم «حواء الجديدة» هذه المرأة التي أزالتم انقباض آدم وحملته في أحشائها بذرة نامية، ونفت بأنفاسها عنه

الموت والضياح. إنها السلام والهلاك، الخصب والنماء، الحياة والولادة، نعيم الدنيا وجميعها، بدونها تصبح الأيام باهتة لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، ظلاما وصديدا داعمين، شمسا معطلة وشقاء سرمدًا.

وبينما يشعّ الوجه المزهري برياحين الحزن، تحدثني النفس القاصرة أنّ الفعل وإن بلغ ذراه عاجز عن تحقيق دفين الرغبات، وأنّ الأنثى المشتهاة خيال هارب لا يكتمل أبدا، وأنّ الجمال الأسمى يفرّ من إطار الحياة وقيوده. ويلوح لي شحوب خافت على وجنتيها الحريرتين، واعوجاج قليل لا يكاد يرى، يتربّع على الحاجبين، وبياض خافت ينام تحت الجفون... وأترجع خطوتين إلى الوراء لمزيد التثبّت والتأمّل فيخيل إليّ أنّه بإمكانني صنع كائن أفضل وأرقى.

وأشقّ صدري بسكين عريضة الفصل فأنزع من جانبه الأيسر إحدى الضلوع الصغيرة، وحين يلتحم المكان أغمس الضليع المعوّج في أصباغ خيالي فأظفر بمزيج في الألوان المتوهجة : رمادي لؤلؤي وأصفر مزهري وزبرجدي غصّ وأرجواني موزق... وغير ذلك من ألوان الحياة...

أتقدّم من حواء الجديدة ممسكا بأطراف أصابعي ريشة فكري، فألثم بسنانها ذقتها الشفاف الناعم رأسا عليه شامة حسن داكنة، ثم أغمسها في أصباغ أخرى من النور متموجة، وأنقلها بلمسات رفيقة على البشرة الناعمة والجسد الشهي المنساب موسيقى أنثوية مخدرة.

وكلّما أحسست بوخز الإبر في جنبي الأيسر - مكان الضليع المخلوع - رميت بالريشة جانبا، وقرّبت مني الحسن القائم، وحضنته برفق ومودة، فقتضاهل الآلام وتخفت الوحشة ويتبخّر الانقباض. ويظلّ تمثال الحسن الحي قائما في عينيّ بؤبؤا ملائكيّا وشيطانا رجيمًا، وأظنّ أنا على مدى الأيام أهدّبه وأنقحه، وأرسمه حلما متجددا مستحيلا.

بوروي عجينة

قارورة

(1)

الماء تقلبها وهي تلهث
عطشا. منذ قليل جاءت
بها الناظرة من مكتب السكرتيرة،
أخرجتها من بين ثنايا قماش كانت
تحمله وأخفتها خلف الصناديق
بشكل لا يراها غيرها.

قطرات الندى المنتشرة على
زجاجها تغريها بالإفطار. تحاول أن

الفرد

تصرف فكرها عنها فتتكب من جديد على القماش ولكن نظراتها
تظل عالقة بها كلما رفعت رأسها فتبدو كأنها حلم مستحيل.

صناديق الأقمشة مكشوفة بجانبها وخلفها تدفّقها عليها في
سرعة مذهلة يزيد من توترها وارتيابها. عليها أن تنجز ألف
قطعة من القماش تنظف كلّ واحدة من الخيوط الكثيرة العالقة
بها وتقطع الزائد منها في الأطراف ثمّ تضع عليها لوحا من
البلاستيك المقوى به ثقوب عديدة تعين من خلالها نقاطا هي
إشارة لمكان جيب السترة.

عندما أفهمها أحد المسؤولين الألمان العمل بخليط من
اللغات، فرحت واستغربت سهولته، ولكن أدركت فيما بعد أن
عليها أن تدفن وجهها في القماش وتعمل بسرعة آلة عليها أن
تحقق الإنتاج المطالبة به. إنهم يريدون الإنتاج ولا شيء غير ذلك.
الإنتاج وإلا وقع التخلي عنها.

الثّوافذ صغيرة وعالية والجوّ خائق جداً. الحرارة فاقت

الأربعين هذا الشهر وسقف المعمل المركب من قطع قصدير كبيرة لا يحمي كثيرا منها. البخار المتصاعد من مكاف كثيرة منتشرة في أنحاء المعمل يجعل الجو لا يطاق ويزيد من صعوبة الصوم والعمل.

كانت الناظرة تتفقدّها من حين لآخر، تتشبّت في حزم ممزوج بقسوة خفية من صحة العمل. تذهب تتبعها طقطقات نعلها العالي وتسبقها أوامر إلى بقية الفتيات. كانت امرأة أربعينية العمر عابسة باستمرار، ضئيلة، قصرها المفرط زاد من قبحها وقد عرفت فيما بعد أن الفتيات يطلقن عليها اسم «زكية قزوم».

بالقرب منها تعمل فتاة على مكواة كبيرة. كان العرق ينزّ منها فيبائل منزرها ويلتصق بجسدها الضخم فيكشف عن الكثير من تفاصيله وقد يكون لبدانتها دخل في اختيارها لهذا العمل.

كان وجهها المكدود يفيض سداجة وهي تسترق النظر إليها وكأنّه تبحث عن سبب تفتح به حوارا معها.

عندما ابتعدت الناظرة ذات مرة وهي تحرك شفيتها المزمومتين إلى أقصى اليمين مبدية بذلك غضبها من بطء العمل، بادرتها قائلة بهمس مسموع:

- اسمعي، لا تضيّعي وقتا طويلا مع كلّ قطعة قماش، نخلّفيها فقط من الخيوط الكبيرة الظاهرة واتركي الصغيرة إنّها تتطلب وقتا طويلا.

- المقصّ آدمى أصابعي... ألا ترين أن الألف الذي طالبوني به رقم كبير جداً.

- نعم، ولكن ستتعودين على ذلك، قلولي لي، ألم تعلمي قبل الآن ؟

- كلاّ.

- ماذا كنت تفعلين إذن ؟

- كنت أدرس.

- إلى أيّ سنة وصلت ؟

- الخامسة ثانوي.

بدت دهشة حقيقية على ملامحها الطيبة، توقفت لحظات عن العمل، حدثت خلالها في وجه الفتاة الجديدة وكأنها تكتشفها من جديد ثم قالت :

- ألم تجدي غير معمل الخياطة تشتغلين فيه ؟
- لقد بحثت طويلا ولكنني لم أوفق.

(2)

منذ مدة طويلة وهي تبحث عن عمل. كتبت مطالب شغل كثيرة عبأت بها حقيبة يدها ووزعتها ذات صباح على إدارات وشركات ومؤسسات عديدة. انتظرت شهورا طويلة رداً ولكن لم يصلها سوى واحد يقول فيه صاحبه «ليس لدينا شغور». كانت تريد أن تسبق أمها في العثور على عمل. كانت مستعدة لترك المدرسة وقبول أية مهنة على ألا تضطر أمها لذلك. إن مجرد التفكير في هذا الأمر يجعلها تختنق ببيكاء عصبي صامت «السيدة خديجة بنت الحاج علي تترك بيتها وتشتغل منخلقة بإدارة أو مستشفى تمسح الأرض وتذعن لأوامر اللي يسوى واللي ما يسواش ؟».

منذ سنة كاملة أحيل والدها على التقاعد. أوقفوا جرايته طيلة هذه الفترة. قالوا له أول الأمر : إن مرتبه سبخضع إلى نظام مالي جديد ثم أعلموه أن الكمبيوتر طرح حالته لأنها استثنائية جداً. بعد ذلك صاروا يطالبونه بأوراق كثيرة ويحيله الواحد من الموظفين على الآخر.

مرة هاج وماج ولعن الكمبيوتر والموظفين والبلاد. جاؤوه برجال الشرطة فأخذوه إلى مركز الأمن حيث أمضى على التزام بعدم التعرض للموظفين.

نفذ كل ما بحوزته من مال اشتغل بأحدى الشركات الخاصة. كان يعود متجههم الوجه ويعاني من آلام مبرحة بالمعدة. كان من الصعب عليه بعد أن قضى ثلاثين سنة مسؤولا بأحدى الدوائر البلدية بالعاصمة أن يجد نفسه فجأة جالسا وراء مكتب يستمع

إلى ثرثرة لا تنتهي من زملاء وزميلات. ومحكوما من قبل رؤساء
لا حق له في مناقشة الواحد منهم. تكررت خصوماته وكثر مرضه
فانقطع عن العمل.

(3)

في ذلك الصَّبَاح الصَّيْفِي أُصِرَّتْ على ألا تعود قبل أن تجد
لها عملا توجَّهَتْ إلى المنطقة الصَّنَاعِيَّة «بالشرقية»، دلَّها بعض
عمال شركة صنع الأحذية على المِعمل الألماني. عندما اقتربت من
بابه الحديدي الكبير رأت رجلا ينزل صناديق من شاحنة كبيرة.
شجَّعها مظهره الفقير على التكلُّم معه. قالت له :

إنَّها جاءت تريد عملا ففتح لها الباب.

أخذها إلى مبنى الإدارة. أحسَّت بانتعاش كبير وهي تدخله
تمنَّت أن يسمحوا لها بالانتظار بعض الوقت حتَّى ترتاح قليلا.

وراء نافذة من البَلُور تجلس امرأة إلى مكتب. عندما أحسَّت
بالضَّجيج الذي أحدثه صوت الرَّجل رفعت رأسا يبدو مثقلا
بالنَّعاس وجعلت تنظر ببرود إلى هيئة الفتاة. بادلتها نفس
النَّظرة : آثار مكياج عميق مازالت عالقة بوجهها المستطيل وعلى
كتفَيها العاريين نبعث شعر بأصابع مختلفة.

سألها بنبرة متثابرة.

- هل تملكين ديبلوم خياطة ؟

- لا ولكني درست حتَّى السنة الخامسة ثانوي.

مدَّت رأسها وظلَّت تتأمَّلها مدهوشة وكأنَّ الجواب قد جمدها.
ثمَّ أخذت تفرك عينيها وتحرك رأسها باتجاهات مختلفة وكان
النَّعاس قد غادرها بشكل واضح. قالت بحزم :

- اسمعي، نحن نريد فتيات يتقنَّ الخياطة. لا حاجة لنا
بالمعاونات.

كادت الخيبة تفجَّر عيونها بكاء وتخلع قلبها.. قبل أن تجرَّ
خطواتها الحزينة باتجاه الباب قدم رجل طويل القامة ، رياضي

المشية، عرفت من ملامحه الشقراء أنه المسؤول الألماني عن العمل، تأملها بنظرة سريعة ولكنها ذكية، ثم أخذ يتحدث إلى السكرتيرة بشأنها بلهجة تونسية مشوّهة. اهتزت بتقاؤل طفلة. التفت إليها وسألها بلكنة عربية ثقيلة محاولاً الضغط على حرف الراء :

- كم عمرك ؟

- سبعة عشر عاماً.

بدا مفكراً في الأمر وهو يحكّ جبينه بسبابته ثم أوماً للسكرتيرة بتسجيلها. أخذت مذكرة كبيرة وهي تقول :

- بإمكانك أن تشتغلي معنا بمرتّب قدره خمس وثلاثون دينارا بالشهر. إنّ سنّك دون الثامنة عشرة لذلك لا نستطيع أن نقبلك كعاملة محترفة ستكونين معاونة.

قبل أن تنتظر رأياً منها أخذت تدوّن بالمذكرة معلومات خاصة بالفتاة الجديدة بينما ظلّت هي توشوش لنفسها «خمس وثلاثون دينارا ؟ يا لتعاسي وفقرى الزمن. أأنتقل من مكان بعيد إلى هنا طيلة ثلاثين يوم محرق من أجل هذا المبلغ السخيف ؟...»

توقّفت عن التفكير وهي تمدّ للسكرتيرة أوراقها ثم أردفت قائلة : «على كلّ حال خير من بلاش».

خرجت تتبع السيّد الألماني، مشياً في ممرّ ضيق ونظيف على جانبيه مكاتب فتحت أبوابها. لوحات زيتية عاتمة معلقة على الجدران والذوق الألماني الصارم يطبع روح المكان.

بدأ إيقاع خطواته العسكرية يغيب مع اقتراب صوت المحركات. فتح الباب، داهمها ضجيج قوي مخلوط بصوت ضائع للمطربة «وردة». فضاء واسع صفقت فيه الات خياطة متطورة جداً وراءها تجلس عاملات يبدو الإجهاد واضحاً على وجوههن كنّ يرفعن رؤوساً واهنة ويتأملنّها ثم يتهامسن فيما بينهن. أحست أنّها المقصودة بالهمس. بعضهنّ كانت تشارك المطربة «وردة» أغنيتهما «في يوم وليلة» وكأنها تهوّن على نفسها مشقة العمل.

دقّ جرس. ترك الجميع كلّ ما بأيديهم وتحوّلوا إلى الجهة الخلفيّة في اندفاع غريب. عشرات العاملات يتزاحمن حول الصنفيّات الثلاث الموجودة بالتواليّات. تعالّى صراخهن وضجيجهن وهن يتدافعن في توتر نحوها. كان الماء ينزل ببطئٍ يثير الأعصاب وكنّ يضعنه في لهفة على رؤوسهنّ وصدورهنّ ثمّ يخرجن مبلّلات ضاحكات وكانهنّ مارسن لتوهن متعة قصوى.

بقيت تنتظر حتى تخفّ الزّحمة. جاءت بعض الفتيات يتحدّثن إليها فهمت أن الحنفيات تغلق أثناء العمل حتى لا ينشغلن بالتردّد على التواليت وتبذير الماء.

توجّهت معهن إلى قاعة فسيحة، كان فيها عدد من الفتيات جالسات في استرخاء على كنب خشبية طويلة بينما استلقت الأخريات على الأرض وقد أسندت الواحدة منهن رأسها على أرداف الأخرى.

شبّت معركة حول الجلوس على الكنب. تعالت أصوات عصبية. تخيلت أن الأمر قد تحوّل إلى اشتباك بالأيدي ولكن سرعان ما انقلب العنف إلى حركات كوميدية تفجّر الفتيات ضحكا.

(5)

بدأ نسق العمل يتسارع. انخرطت في حركات محمومة أمضت ساعات مختلفة حتّى تنجز الألف قطعة. اعتصرت كلّ قوتها حتّى تثبت جدارتها.

عند ما فرغت منها مع رنين جرس الخروج. هداأ توتّرها.

بدا المسؤول الألماني مطعمنا برغم صمته. قالت الفتاة البدينة وهي تغمز لها : «إنّه لم يتعلّم سوى لغة العمل أمّا عبارات الشكر العربية فما زال ذهنه غير قادر على حفظها».

قرب الباب الخارجي كان يقف شاب طويل القامة، عضليّ

الجسد. كانت قد رآته أثناء العمل يحمل الصناديق. كان يتشبّث في هيئة العاملات المتلهفات على الخروج، وكنّ يهزّان به وهن يغازلنه ببذاءة واضحة عندما رأى الفتاة الجديدة غرز نظراته فيها ثم ناداها بلهجة ناشفة وأمرها بحركة من رأسه بالدخول إلى غرفة التمريض. التفتت إلى بقية الفتيات مستغربة الأمر فافهمنها بأنها ستخضع إلى عملية تفتيش وأنهم يفعلون ذلك عادة مع كلّ عاملة جديدة.

كتمت توترها ودخلت. كانت الغرفة صغيرة جداً بها طاولة وفراش وأدوات تمريض بسيطة. جاءت فتاة تلبس منزراً أبيض. كلّ شيء في ملامحها يعيل إلى الكبير. طلبت حقيبة يدها فقدمتها لها. أفرغت كلّ محتوياتها علي الطاولة : أوراق كثيرة، كتاب، بعض المال، مقص. أخذت المقص بين أصابعها جعلت تتشبّث فيه. سألتها عنه فقالت : إنّه ملك لها وأنها سلّمت الآخر إلى النّاظرة قبل الخروج.

أعادت كلّ المحتويات إلى الحقيبة. أمرتها بخلع ثيابها قائلة بصوت منخفض بأنها ستفتشها. أدهشها الطلب وغشى وجهها غضب مفاجئ كادت تدفع بها إلى الحائط وتطلق صرخات فزع ولكنها روّضت أنفاسها المتلاحقة وشرعت في فك أزرار قميصها بعصبية واضحة ثم نزعته سروالها وألقت به إليها، تلمست جسدها بحركات بطيئة ودقيقة ثم أخذت تفتش جيوبها. قبل أن تنتهي من ذلك التقطت الفتاة سروالها وارادتته بهستيرية. بقيت تنظر إليها غرقت في صمت رهيب. بدت حزينّة إلى حدّ الموت وكأنّ الموقف قد أيقظ فيها ألما كانت تحاول إخفاءها.

قبل أن تترك الفتاة الغرفة قالت لها بنبرة حزينة «أنا أسفة، إني مكلفة بهذا العمل مهنتي الحقيقية هي التمريض وقد تخرّجت منذ شهور طويلة ودخلت هنا على أساس ذلك ولكن صاروا يطلبون منّي تفتيش العاملات إني أجد حرجا كبيرا في ذلك ولكنني مضطرة لقبول الأمر إذ لم أجد غير هذا المعمل مكانا أشتغل فيه».

(6)

استقبلها نور الشمس، التمع شعاعه في عينيها اللتين
نزفتا دمعاً، كان الطقس ما يزال ساخناً ولكنها أحسّت أنه لطف
بكثير من القرن الذي كانت فيه.

رشيدة الشارني



ميزوني البناني

وكالعام الفارط وككل
الاعوام الفانية، جلس
الرجل وراء منضدة

كأمس

استقبال الزبائن على كرسي
عجوز، غير أن كيفية جلوسه هذه
المرّة تختلف كل الاختلاف عن
سابقاتها. فما كان مسعود الشقي
كعادته يطارد بعينه المتعبتين
الفادي والرائح، متمنياً على الأقدار
أن تسوق إلى دكانه الصغير زبونا

مسحوق الشقي

محترماً لا يرجي الدفع إلى موفي الشهر أو يتصفح دفتر الديون
لأننا أسماء كثيرة لم تسدّد له ما عليها من ديون شهور وشهور.
وما كان يرمق وفوف الدكان القليلة فيمضيها بسلع كثيرة متى
قدم ابنه من وراء البحار بمبلغ مالي هام. وما كان يرمم حلمه
القديم ضد هجمات يأس جائرة تشد كلما اختلى به العقل وما
كان.. وما كان... بل كانت رأسه المتعبة مرتخية على وجه المنضدة
الزرقاء فيما كانت قبضته تنامان قرب وجهه وقد انغلقت كل
واحدة على أعقاب ورقة تحمل حروفاً كبيرة خطت برداءة.

في ذلك المساء، قال البعض وهم يقفون عند رأسه : «وأخيراً
استجايت لك الأقدار يا مسعود، فأرسلت إليك زبوناً لا كالزبائن،
زبون محترم، لا يؤجل الدفع. زبون اشترى منك كل ما تبقى في
رفوف دكانك ورفوف قلبك من روح شقية ومضى».

وتهاشم آخرون يعجّ دفتر الديون بأسمائهم : «... ثم هانئاً،
فلقد جاءك من كفك عن طرق أبوابنا صباحاً مساءً!».

وفضل شاب أن يكزّ على شفتيه صامتا وقد رأى أن مسعودا مات مقتولا بنفس الرصاصة التي قتلت ابنه منذ عامين في بلاد الغربية.

أما البنت سعدية فلقد رفعت رأس أبيها ونظرت في وجهه فإذا بعينيه مغمضتين كمن ينام نومة هادئة، هائنة، وإذا بعلامات الألم مرسومة بوضوح على وجهه الشقي، فبدا كأنه ينتحب ويتوجع في صمت داخل قامته الطويلة.

في ذلك المساء تقهقرت سعدية وقد وقعت عيناها على أعقاب تلك الورقة التي تعرفها جيّدا، داخل قبضته المتخشبتين، ثم تفرّفت أمام العطرية وأخذت تولول : «حسرتي عليك يا أبي ... أحبيتك بيد وقتلتك بيد... ويحي أنا.. ويحك يا سعدية الشقية.. يا من يطفئ نارا تتلظى في دمي...» وكانت يداها في الأثناء تمزقان شعر رأسها وتسلمانه تسالات نسالات إلى أكف الهواء لتتلاعب بها فوق سماء الحي. لكن الإغماء سريعا ما أسعفها، فتعدّدت على الأرض بلا حراك سامحة لعشرات العيون النّهمة بأن تحطّ على نخذيها وقد انحسر عنهما فستانها المورّد.

ليس الشقاء غريبا عنك يا مسعود فلقد رضعتما من ثدي واحد، وقمطتما بقماط واحد ونمتما جنباً إلى جنب في مهد واحد، وتدنّرتما في البرد بأسمال واحدة وأكلتما الحساء بملعقة واحدة، وقرضتما الكسرة بأسنان واحدة، ونطحكما حيطان واحدة وتهجيتما سطور مستقبل واحد، أحبيتما النساء بقلب واحد، ومتما في يوم واحد، وأقبرتما في رمس واحد، وأنت الشقاء يا مسعود.. وأنت مسعود أبيها الشقاء.

سل الشقاء، فستجده النديم الذي توارثه أبائك وأجدادك عن آبائهم وأجدادهم، هو في الأصل صديق، ولكن أمك وأباك كرها صداقته فعلا البيت تماثم، واستعانا بكلّ الشيوخ، وذبحا من كلّ حيوان أسود طريدة حتّى من الغنران فلم يفلح دم من الدماء في فسخ عقد هذه الصداقة الوراثية ولكي يسدّ أبوك عن الشقاء طريقه إليكم سمّى أختك «سعيدة»، وأخاك الحيّ سعيدا، وأخاك

الذي مات «سعداء» وسماك أنت «مسعوداء»، والتفت بعدها الى الشقاء يتهكم عليه قائلا : «... لم يبق لك بيننا يا حبيبي مكان يليق بمقامك، للسعادة والشقاء طريقان لا يلتقيان، كما الماء والنار». يومها ولأول مرة في حياته، خالف الشقاء العرف وذلك حين ردّ على تهكم أبيك بضحكة من كثرة طول عهده بالضحك جاءت تشبه صياح الديكة أو أي شيء آخر لا يشبه الضحك، عندها فهم والداك أنه صورة من صور القدر العنيد، فاستسلما له منذ ذلك الحين.

ليس الشقاء غريبا عنك يا مسعود إنه الخلل والصديق، ونديم الصمت المقيت، فهل يوجد من أخلص لك ولأبائك وأجدادك مثل إخلاصه ؟

لم يغضب منك ولم يتفعل عندما تدمرت مرأت ومرأت من جنومه على قلبك وسده لدرب الهواء ومسالك الثور، ولا لما سميت ابنك سعدا وابنتك سعدية، ولا حتى عندما فتحت دكانا صغيرا وجعلت له من الأسماء عطار السعادة.

هل يعلم الشقاء أنك فعلت ذلك أيضا لتوجيه أنظار أهل الحي عن نعت الشقاوة التي تهتك بها إلى نعت السعادة ؟

ماذا كنت تنتظر منهم وأنت تغدو وتروح بينهم، تلفك ستائر الصمت وتتلاقفك أكف حزن غائر في أعطاف روحك ؟

عرفوك وجها طلاؤه طلاء سماء مربدة، متوجعة عن كثرة ما تتسلقها من غيوم ...!

عرفوك قامة طويلة تمشي على مضض تترنح تحت وطء أثقال مضمنية !

عرفوك والشقاء تتمشيان أو تجلسان واليد في اليد والقلب على القلب، والسيجارة نفس لك ونفس له !

عرفوك شغرا من طول عهده بالابتسامة نسي كيف رسم الابتسامة !

قالوا لك ابتسم مرة حين ولدت لك زوجتك ابنة سميتها
سعدية ومرة حين ولدت سعدا، وثالثة لما أرسلت هذا إلى بلاد
الغربة للعمل. ولكنك ما فعلت، فلقد مكرت بك الابتسامة.

ربما الابتسامة لم تداعب ثغرك لأنك أحسست بأن من يولد
له ولد أو بنت، وهو يعرف الحياة على حقيقتها، فسوف يتألم على
قدر ما رأى في الحياة من آلام وملام وأتعاب وشقاء.

هكذا مكرت بك الابتسامة وقد خفت على فلذتي كبذك من
الحياة التي ربما تفعل بهما ما فعلت بك، فلا تريهما إلا ذلك الوجه
الأجرب القاسي.

ومكرت بك الابتسامة حتى في المرة الثالثة.

كان من المفروض أن تشعر ولو بالطمأنينة وقد تمكنت من
إرسال ابنك إلى الخارج إنقاذاً له من براثن البطالة. أو أن تحس
على الأقل بأن ثقلا ما كان يرهقك قد أزيح عن كاهلك ولكن لا هذا
ولا ذاك تم.

أتكون يا مسعود الشقي ما زلت مصلوباً بمسامير الوجع
على خشبة الندامة لتفريطك في قطعة الأرض البور ؟ ولكنك كنت
مجبوراً على ذلك لتوفير ثمن تذكرة سفر سعد ! كنت وأنت تتسلم
من الشاري الثمن قد أحسست بأنك لم تبع فقط أرضاً بل أيضاً
آخر ذكرى كانت تذكرك بأبيك، ذكرى تعبق برائحة عرقه المالح
وأنفاسه المتقطعة من كثرة الإجهاد، ذكرى تحكي رحلة أبيك مع
الضنأ والشقاء، وتعيد على مسامعك حتى زفيره وأنينه وهو
يصارع الجذب الجبار، ذكرى كنت مجبراً على تضيقها وأيضاً على
التحرق والتوجع لضيقها !

فعلام الابتسام يا مسعود الشقي ؟.

الأرض فرطت فيها وسعد لم توفر له ما وفر الآباء لابنائهم.

كبر سعد يا مسعود، فلم يجد في انتظاره إلا الخصاصة
والشقاء، والعثرات، وكبر أترابه في الحي يا مسعود فوجدوا

مفاتيح كثيرة تنتظرهم، مفاتيح السيارة، ومفاتيح المنازل المؤثثة
مفاتيح العقارات، ومفاتيح أخرى لا ترى.

كبر سعد يا مسعود فوجد أبواب الحياة كلها مغلقة في وجهه،
وكبر أترابه يا مسعود ليجدوا أبواب الحياة مفتوحة على
مصاريعها.

هكذا مكثت بك الابتسامة في كل تلك المرات، لكنها طاوعتك
لما بدأت تصلك من بلاد الغربة رسائل سعد. وصار ثغرك نبيعا
للابتسامة عندما كتب إليك يقول إنه سيزورك بعد أيام بكل ما
أخبر من مال طيلة ثلاث سنوات من العمل في مخبزة ذلك
الإيطالي، وإنه لك أن تتخيل كيف ستطور عطريتك !

أيام قليلة كانت كافية لإعداد تصميم يمتاز بالاتساع، ويقرأ
حسابا لرفوف كثيرة وواسعة، ولخضعة خشبها رفيع وأدراجها
مصونة، ولم تنس أبدا ابتكك سعيدة، إذ خصصت لها في مخططك
تصميما لمحل خياطة يبني فوق عطريتك ويكون مجهزا بآلة
خياطة متطورة.

كان لا بد أن تنتظر عودة سعد ليصبح التصميم واقعا
لملوسا. وأخيرا عاد سعد ولكن في صندوق من الصفيح مخترم
بالشمع الأحمر.

كشفت عن وجهه قبل أن ينزل به رجلان إلى المشوى الأخير
فوقعت عيناك على قواطعه المنغرسه بشدة في شفثيه السفليين
المزروقتين، وعلى علامات التوجع المرسومة على كامل وجهه،
فبيدا لك كما لم يبدا أحد أنه مازال يصرخ نفس تلك الصرخة
المكتومة التي لا بد أنه صرخها هناك في الغربة والرصاص
الطائشة تخترق صدره المعتلى شوقا إليك وإلى أمه وأخته، وفجأة
عبرت ذهنك صورته وهو يسقط ثم يقوم، ثم يسقط أخيرا ويجثو
على ركبتيه المرتجفتين، ويده على صدره الملتهب وعيناه
الكبيرتان الجبليتان، تحاولان عبور بحار وبحار لتلقيا بنظرة
أخيرة وإلى الأبد على وجوه أحبها وأحبته، ولكنهما لا تقعان إلا
على أشباح مارة يسرعون الخطى لا يبالون به، فليس ابن بلدهم،

وليس قطاً، وليس كلباً، ولا سمكة، ولا دودة، حتى يهبوا لمساعدته، فليذهب إلى الجحيم، عندها دفنت وجهك في وجهه البارد المغترب، قبل أن يغشى عليك إغماء لم تستفق منه إلا في الغد.

كان الرجال يريدون إقناعك بأنك لم تكن نائماً بل كان مغشى عليك من فرط الصدمة، وبأن دفن ابنك لم يكن أضغاث أحلام بل واقعا شهدته معهم ولكنك كنت تنهرهم وتتوعد كل من يريد تعزيتك فيه، فشباب مثله لم يتمتع بشبابه بعد، ولم تضحك له الدنيا إلا أخيراً، محال أن يموت الآن.. محال أن يغادر وحيوات أبيه وأمه وأخته مرتبطة بحياته !.

وبقي «سعد» ميتاً في نظر الجميع. أما في نظرك فهو حي يرزق، تتابع أخباره عن طريق رسائله التي مازالت تصلك من حين لآخر.

في الرسالة ما قبل الماضية، شكالك من المزاج المتقلب لصاحب المفزة الإيطالي ومن المعاملة السيئة التي صار يعامله بها، وفي الماضية أكد لك أنه طرد من العمل، وأنه أجبر على صرف ما ادخره من أموال، وفي الرسالة التي بعد الماضية، أعلن رسمياً عن تأجيله لتلك الزيارة التي كان قد وعدك بها في الرسالة ما قبل الماضية، لأنه لا يمكن أن يزور البلدة صفر اليدين. ماذا سيقول أهل الحي ؟ رجع ربنا كما خلقتنا !

أما هذه الرسالة التي تسلمتها قبل أونة من موزع البريد، ماذا تراها تحمل من الأخبار عن سعد ؟

المهم صحتك وسلامتك وسعادتك يا سعد.

فتحت يا مسعود الشقي الرسالة بلهفة وقرأت متهجياً :

« ... أبي ... تجلّد يا ابن الجبال التي لا تنال منها الرياح إن عصفت ولا الرعود إن قصفت، ولا السيول إن سالت. »

« أبي ... عاهدني على أنك ستؤمن بأنّ الموت هو الحقيقة الوحيدة في دنيا كلها أكاذيب، وأخاديع، وأباطيل... »

«... قتلوني يا أبي لأنني مهاجر عربي...»

انقبضت يداك على الورقة، ورأيت فيما يرى النائم أنك تريد أن تتخبط وتتوجع وقد تكسر بداخلك شيء كالبلور، فلا تستطيع إلا أن تطيع الحقيقة الوحيدة وهي تجذبك إليها شيئاً فشيئاً، إلى أن صرت في أحضانها بعيداً عن شقاء الأحياء، وأحلامهم، وسذاجاتهم..

* * *

إن حريقات خياطة السعادة هن خليط من نساء الأحياء التي دبت فيها شهوة سعيدة تراهن يتهافتن عليها كما لو تكون الخياطة الوحيدة في المدينة.

إنهن يفضلن على بقية الخياطات، لأنها تسعى إلى التجديد في طرق التفصيل، فمحلهن ثري بالمجلات العالمية التي تزخر بأخر الصيحات في مجال اللباس، هذا إلى جانب موهبتها وشهادة التقنية التي تحصلت عليها منذ أعوام مرت في الخياطة.

سعيدة، دأبت على فتح محلها باكراً لتظل فيه إلى آخر الليل سجينة الأقمشة وآلة الخياطة. سعيدة هي في نظر أهل الحي، مثل من حققت حلم أبيها القديم في إعمار العطرية بالرفوف المتينة الواسعة، والسلع الثمينة، ومثل من شيدت فوق العطرية محلاً للخياطة ترتاده في اليوم عشرات الحريقات، مثل هذه، لا بد أن يكون فراشها، وغطاؤها وطعامها سعادة في سعادة.

لا أحد منهم كان يدري أنها تتفنن كل يوم في تعذيب نفسها وأنها لا تدخل المحل إلا لتحاول الانخراط في النسيان من الصباح إلى آخر الليل بالعمل، ولكن صورة أبيها ميتاً يعصر الرسالة بقبضته المتخشبتين لم تغادر عينيها قط منذ ذلك اليوم الأجرب.

أحيته بيد... وقتلته بأخرى..

أحيته بالرسائل الثلاث التي صاغتها لتزيده بها يقيناً من أن سعداً لم يموت. وقتلته بالرسالة الرابعة.

كان عليها أن لا توحى إليه فيها بموت سعد بتلك السرعة.
كان عليها أن تتحمل رؤية أبيها يعيش كذبة إلى أن تضعه
شيئاً فشيئاً برسائل أخرى أمام الحقيقة، فتكون الضربة عليه
برداً وسلاماً.

ولكنّها تسرّعت فقتلته بضربة قاضية ومستعجلة كالقدر.
سعيدة هي في نخل أهل الحيّ، في اسمها، وفي اسم محلّها
ومحل أبيها الذي تديره أمّها بعده سعادة في سعادة. بل هي
السعادة تمشي على قدميها.

المؤنني البناني



حسني سيد لبيب

في

«الرحاب العربية
لا في غابات أنصارنا الشمالية
رأيت في عينين لوزيتين
غضبا يعتز به الانسان.
أفهم حماسك بلا كلمات
.....

فأنا أيضا كنت طريدا

أبان الحرب

وأنا مثلك أعرف ثمن الحرية
تقرأ وفاء سطور كتاب. تمل

فلسطينية

القراءة فتطرحه جانبا وتشرد في الأفق البعيد. ما جدوى الدراسة
والنفس مصدودة ٩. تقرأ الانكسار في عيني الأب. عينان كليتان
فقدتا بريق الفزاعة منذ ماتت زوجتي، وأن أنظر وفاء وأخيها
بعيون الرجاء والام. لكن وفاء وهي تتطلع الى المستقبل، ينتقل
اليها الانكسار الذي يميم فرحة القلب من قبل أن تولد.

لم تكن تحلم. فالأحداث تتوالى وتقضي على أيام البهجة
والمرح. ويتبدى المستقبل أمام ناظريها قاتما لا ينبئ عن شيء
يسر القلب. والواقع الذي تعيشه بنت السابعة عشر ربيعا، لا
ينبت ورود البهجة والسرور. أمسى بستان الحياة خاليا من
شجيرات الورد، لا يظهر فيه غير حشيش ذابل لا نفع فيه ولا ثمر.
وما يربطها برؤى المستقبل، خيط وحيد رفيع، يتمثل في خالد
وجاسم. وتطلع الى اجتياز الامتحان هذا العام، وأمل في أن تعم
الفرحة بيت ال حماد. لكن نبضات القلب مشحونة بأنين مكتوم.

تشرد في البعيد، حيث يحتجز أخوها وراء القضبان.
تسترجع أحداث الليلة المشؤومة، ليلة القبض على خالد. كيف

اقتحموا البيت، واغتصبوا منه الأمان والسكينة. انخلع قلب الأب، وهو يرى خالد يلقي الضرب، وحين احتج أسكتوه بالشمع الرخيص، واقتادوا خالد موثق اليدين، صرخت بأعلى صوتها، وزعقت في حدة :

- يا كلاب ..

تردد الكلمة، ترد اعتبار الأب الهرم، الصامت في ألم. لا يملك دفع الأذى عن ابنه. بصقت في وجوههم، فأوقعها أحدهم بكعب حذائه، فسقطت على الأرض تمسك جنبها الأيسر في ألم شديد.

بعد تلك الليلة المشؤومة، لم يهنا لها طعام ولا نوم. وأبوها شحيح الكلام، قد جلس إليها ذات مساء، وتحرر من صمته وفتح لها قلبه، يثن، ويكاد يجن. لافتقاده زوجته !. يصف لوفاء أمها التي ماتت منذ سنوات بعيدة، كم كانت جميلة، حلوة العينين، خفيفة الظل، وحكى لها ظروف وفاتها في حادث. وذكرها بأمنية المرحومة التي لم تتحقق، في أن تراها عروسا تزف الى عريس يختاره قلبها، وتوزع بتفسيها الملبس والشرباث، فعاجلتها المنية ووفاء بنت العاشوة. ثم استرسل في الكلام يطلقه على عواهنه، عن البيت الذي يعيشون فيه، ويلقن وفاء درسا في مغزى الإبقاء على البيت. ان بيت آل حماد - هكذا نطق الأب الهرم - ينبغي أن يظل مضاء في حياته وبعد مماته.

وجاسم ابن عمها، ينتظر بفارغ الصبر، حتى نهاية العام الدراسي، ليجعلها مناسبة حلوة ويتقدم لخطبتها. ولا تدري السر الغامض الذي يحبيبها فيه، رغم عوده النحيل، وصمته الذي يدل عليه. قد يكمن السر في عينيهِ الشاخصتين، كطاقة نور يتضوأ منها القلب المعنى.

متى يفرجون عن خالد ؟. هل يعذبونه ؟... «تحمل يا خالد. تجلد. هذا ثمن البقاء في البيت. لايد من حين لآخر أن ندفع قهرا ضريبة باهضة من أجل أن نعيش داخل حدودنا، ويظل البيت مضاء. نتحمل الاهانات والضرب والتعذيب والتعرض للقتل».. استشارتها الخواطر. أفاقت منها على صوت خطوات جاسم،

فهرعت تفتح الباب. أتاها حاملا كراسي أشعاره، يسمعها مقاطع حلوة عن البيت والوطن، وعن الأرض والعرض. تهتف بشعره معجبة. وقضت ليلتها بعد أن انصرف، تحلم بالغد الآتي، محملا بزنايقه وخمائله وأريجه. استرجعت أشعاره. وودت لو تقول الشعر مثله.. «ما أحلى كلماتك يا جاسم».. وانكفأت على السرير حالة به يأتيها عريسا .. «زين الشباب أنت، صغير السن نعم، لكنك فارغ الطول، وعزمك من حديد».

تناهت الى أذنيها أصوات قذف الحجارة. أطلت من الشرفة، فإذا بالشباب الصغار والصبية يرشقون ثلاثة جنود بالحجارة. لمحت من بينهم جاسم. وجف قلبها خوفا وفرحا.. خوفا على جاسم أن يلقي مصير أخيه، وفرحا بالقذائف الحجرية. وفجأة انبعث دخان كثيف حجب الرؤية. اثر القاء قنبلة مسيلة للدموع. من أدراها بأنهم اقتادوا جاسم؟.. هرعت الى الشارع، واقتحمت سائر الدخان، وهي تلتقط حجرا تلو حجر. وترمي في كل اتجاه، دون تصويب على هدف بعينه، فهي لا ترى شيئا.

صوت يزعم محذرا :

- خذي ساترا يا وفاء

صرخت :

- دعوني ألقي الأوغاد درسا..

تداخلت الأصوات تحذر وفاء...

وجرى جاسم نحوها مندفعاً، وقبل أن يصل إليها بمتراً أو مترين، سقطت وهي تطلق صرخة ألم واحدة.

حملها بين ذراعيه، وجرى بها الى أقرب مستشفى. الحالة ميؤوس منها. رصاصة استقرت في الرأس. وهيا الجيران اجراءات تسفيرها خارج الحدود المصطنعة، متجهين بها الى مستشفى بمصر. حاول الأطباء المستحيل. خمس عمليات جراحية على مدار العام ولا فائدة. وعادت وفاء في نعش، يلفه الشباب

الغزوى بالعلم.

بكى جاسم بكاء مرا، ونزف دما من فمه. مد يده المتشقة
يربت على كتف ابن أخيه :
- لا تبكي يا جاسم.

ولم يتمالك هو الآخر، فشاركه البكاء..

شيعت وفاء الى مثاها الأخير. وما تمالك الأب نفسه، فأتى
بالملبس يلقي به في كل اتجاه يمر فيه نعش الشهيدة، محققا أمنية
زوجته في أن ترى وفاء عروسا ليلة زفافها. هاهي تزف في
عرسها المهيّب. وأحضر جاسم هو الآخر ملبسا يوزعه بنفسه،
يرشه على الموكب، فالليلة حفل عرسه!

وبعد الدفن بأسابيع قليلة، أفرج عن أخيها، بعد أن تدهورت
صحته في السجن. قصد قبرها.. تمالك نفسه فلم يذرف دمعة
واحدة، وقفل عائدا، وفي القلب غضب ومرارة. مشى معه شاب،
فثان، فثالث.. مشوا في مسيرة صامتة، عائدين الى بيوتهم، لحوا
سيارة عسكرية تقترب منهم، قرشقوها بالحجارة، وصراخ وفاء
يستثيرهم من وراء حجب الغيب، أن أشعلوا الأرض نارا وثورة...

حسني سيد لبيب

المختار المومني

* ملحوظة مهمة

خبر صغير جدا همست به
إحداهن في أذن الأخرى،
أومات في صمت ثم نقلته
إلى جارتها الأخرى.. مصمصة
شفتيها ثم نقلته إلى جارتها
الأخرى.. عرف الجميع الخبر، حتى
الأطفال. ولما كان الخبر في الأصل
صغيرا فقد زيد عليه الكثير..
أصبح نادرة.. حكاية.

هو

الفاليجة

* صورة أولى من الذاكرة المتعبة

في باكر ذلك اليوم الشتائي كان الجرد خفيفا خارج البيوت
الواطنة المتلاصقة.. الرجال غادروا البيوت حاملين أحلامهم
البسيطة وحكاياتهم المسطحة المغمورة في الرتابة والملل متجهين
نحو المدينة سعيا وراء رزقهم.

* حقيقة ثابتة وقطعية

في زقاق عطن وفي حي فوضوي يقبع في طرف المدينة كانت
الواقعة.

* صورة ثانية من الذاكرة المتعبة

كان كل شيء هادئا في ذلك الصباح الشتائي في ذلك الزقاق
العطن. أشعة الشمس تتسلل على استحياء من وراء الغيوم
فترش البيوت الواطنة اللاحقة بخيوطها الذهبية.. النساء في
بيوتهن.. لا صوت.. لا حركة.

- فجأة خرجت نادرة من منزلها واتجهت إلى منزل ليلي..
دفعت الباب ودلفت

- ألم تسمعي ؟! علي الحوات وجد أمام باب داره فجر اليوم
حقيبة كبيرة لونها أزرق في زرقة البحر، وقفلها منكسر
ومربوطة بشريط حريري أحمر، رأيته وهو يرفعها من على الأرض
ويعضي بها إلى المدينة.

* بعد دقيقتين

نادت ليلي جارتها سلوى.

- ألم تسمعي ؟! علي الحوات وجد صباح اليوم أمام باب
منزله حقيبة كبيرة وقد رصت بالأوراق النقدية من فئة الخمسة
دنانير

- وماذا فعل بها ؟

- أخذها معي إلى منزله وعالج قفلها حتى انكسر وأخذ منها
حزمتين كبيرتين من الأوراق النقدية. ثم خرج بها ومضى
- وكيف علمت ؟
- النسوة يتحدثن بذلك.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

* بعد دقيقتين نادى سلوى جارتها ريم

- ريم .. ريم .. ألم تسمعي ؟

- ماذا ؟

- الحوات. وجد صباح اليوم أمام منزله حقيبة كبيرة مليئة
بالذهب وبالأوراق النقدية من فئة العشرة دنانير.

- وماذا فعل بها ؟

- دخل بها إلى منزله وأقفل وراءه الباب ولم يخرج

- وكيف علمت ؟

- النسوة يتحدثن بذلك.

* بعد دقيقتين

نادت ريم جارتها نعيمة

- ألم تسمعي ؟ علي الحوات وجد أمام بابها حقيبة كبيرة
رصّت بالأوراق النقدية من فئة العشرين ديناراً وبها دفتر ادخار
وذهب كثير. سمعت أنه أخفاها تحت التراب في حديقة منزله.

- وكيف علمت ؟
- النسوة يتحدثن بذلك.

* حديث الراوي

بسرعة عجيبة انتشر أطفال متسخون في الزقاق الضيق
العفن يتابعون الخبر باهتمام واستغراب.

* أحاديث مشوشة

قال الطفل الأول : علي الحوات وجد حقيبة كبيرة مليئة
بالنقود.

قال الطفل الثاني : علي الحوات وجد حقيبة كبيرة مليئة
بالذهب والنقود.

قال الطفل العاشر : قيل بالحقيبة مال كثير وذهب براق..
وبها أيضاً رأس مقطوعة لامرأة.

قال الطفل المائة : يقولون إنهم أخذوه إلى المخفر ويحققون
معه.

* حوار غير منته في الزقاق العطن.

- ماذا كان بالحقيبة ؟
- السماء غائمة.. أظنها ستمطر
- ماذا كان بالحقيبة ؟
- لقد انقطع التيار الكهربائي ثلاثي لم تعد تشتغل
- ماذا كان...
- تعبت .. تعبت .. تعبت.
* عودة لصوت الراوي.

عندما مر سالم الحوَّاف بالزقاق العطن وسمع مايتناقله
الأطفال والنسوة من روايات حول الحقيبة العجيبة أخذ يقهقه
حتى استلقى على قفاه وراح في غيبوبة من شدة الضحك.

• عودة ثانية لصوت الراوي

في المساء عاد علي الحوات إلى منزله. كان الرجال
ينتظرونه في دكان «شعبان الحماص» فقصَّ عليهم خبر الحقيبة
التي قال : إنه وجدها أمام باب منزله وكانت حقيبة كبيرة
منكسرة القفل ومربوطة بشريط حريري أزرق وقد أخذها معه
وسلمها لشرطة المنطقة. وأضاف أنه كان بداخلها ثياب.

• إفادة للقراء الذين صبروا على تعب متابعة خبر الحقيبة.

• هذا القول ورد أثناء تواتر الحكاية نسي الراوي أن يثبت
في مكانه وهو يعتذر عن ذلك السهو.

- وحدهما الذان يعلمان خبر الحقيبة العجيبة. صاحبها
وسالم الحوَّاف.

• تقرير حصل عليه الراوي

<http://Archivebeta.Sakfirit.com>

- نحن فلان الفلاني رئيس منطقة كذا نسجل أن السيد
بوراس جاءنا في اليوم والساعة وأبلغ عن ضياع حقيبة جلدية
زرقاء في لون البحر غير منكسر القفل وغير مربوطة بشريط
حريري أحمر. وبها دفتر علاج مجاني وألبسة لطفل رضيع. قال :
إنه أضعها أمام مستشفى الولادات. وحيث إن الأوصاف التي أدلى
بها تنطبق على الحقيبة التي جاء بها منذ قليل المدعو علي الحوات
فلقد سلمناها إليه بعد أن فتحها أمامنا وتثبت من محتوياتها !

- اعتراف حصل عليه الراوي

• حدثني سالم الحوَّاف قال :

- في الليلة الماضية لما كنت أتسكع أمام مبنى مستشفى
الولادات توقفت أمامي سيارة من نوع «إسيزي» ونزل منها

رجلان وامرأة. ولما دلفوا داخل المبنى نظرت في مؤخرة العربة فوجدت حقيبة ظننت أن بها غنيمة ويسرعة أخذتها وانطلقت بها إلى منزلي. وهناك عالجت قفلها حتى انكسر ولما فتحتها لم أجد بها سوى دفتر علاج مجاني وأدباش لرضيع. فأخذتها بعد أن ربطتها بشريط حريري أحمر ووضعتها أمام منزل علي الحوات ثم عدت فدخلت منزلي ونمت.

* إفادة أخيرة

ومازال الناس في الأحياء المجاورة يتحدثون بخبر الحقيبة العجيبة ويضيفون في كل مرة أخبارا جديدة.

المختار المؤمني



ابراهيم بن سلطان

إلى الشاعر الراحل :
«البشير الجلاي»

السما رصاصا ورياح
الشتاء الغربية القارصة

.. كانت

تصفع صفحة مياه البحر
فتتلوى هادرة غضبى وأنت
وصديقك كصبيين تلعبان برمال
شاطئ «سوسة» الجميل وأصدافه
الخاوية.. بنيتما قصور آمال
للمتعبين وقلاعا حصينة أمينة
للمروعين، وشيتماها عطفًا وريحانا
وأنتما تدخنان سجائر رخيصة

هــروب

يعبق أريجها بخورا وصندلا يملأ قصور الأمل ثم يصاعد فيغمر
الفضاء في هذا اليوم الجليدي...

حدثك عن «همومنا» عن «حبة» الكبير.. حبة الذي قتله فهو
كنخلة جرفتها مياه «السباسب» ذات فيضان فأودت بأحلام فلاح
تلك الربوع عبر أودية غاضبة إلى أعماق بحار نعمة لا تشبع...

وقفتما تتمشيان على الرمل البليل البارد وقامتة تضارع
تلال الشمال سموقا وسمرة حقول القمح أوان الحصاد تجلج
محياء.. كان يحدثك هادئا كهذا البحر أيام الصيف والقادمون من
بلاد الثلج يتقافزون زاهين على رماله الفضية والإناث مطلقات
الصدور تهتز نهودهن رنانة كأنجراس نحاس صغيرة معلقة
بتمائيل شمع عند الغروب...

يتشعب الحديث بينكما، يحتد، فينتفض مزجرا كهذا البحر
ليالي العواصف والقر والأنواء فيبتلع جوفه الشره صيادين
توغلوا في أعماقه وبين الجوانح أمانهم بامتلاك قوارب صيد

كبيرة وأحلام الصغار بأثواب جديدة وكتب ولعب وهدايا ودعاء
الزوجات بالعودة سالمين تنير لهم العتمة وسط أمواج البحر
الصاخب...

زفر :

- لن أسمح لأحد باللعب بي، بعواطفي وإن كان حبيب العمر !
حدثك عن الحب والموت والانتقام.. حدثته عن الحب
والتسامح وأن الحياة رحيبة كهذا البحر بها من الدفء ما يغمر
الجميع...

.. كان جيبه يخف منذ مطلع الشهر، يتوزع راتبه يمينا
وشمالا على الأحبة والأصدقاء فيظل باقي أيام الشهر خالي
الوفاض...

حدثك عن أسفاره الكثيرة غربا وشرقا عبر قطارات أوروبا
وراجلا أحيانا يقطع المفاوز والبراري تحت لفح شمس الاستواء
الحارقة محترزا من أفاعي وعقارب الصحراء...

تحدثنا عن القمر وجمال صنبايا بلدنا فإذا قمره بلا نظير !

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

زفر ثانية :

- من يخادعني أدمره حتى وإن كان قمري الزاهي !
تحدثنا عن الشعر والشعراء وعن نجوم خبت منذ آلاف
السنين ومازال نورها الوضيء يبلغ الأرض...

ظل يردد :

- ما كنت يوما شاعرا !

- بلى أنت شاعر !

فيؤكد في هدوء :

- الشاعر - يا صديقي - يجب أن يذوب من أجل أن تظل
الزهور يانعة ريانة، يجب أن ينصهر في زخم هذا الواقع الجميل

الصاحب الهادر حد الانفجار، حد الاحتراق !

تركنا الشاطئ وجلسنا بمقهى محطة هذه المدينة والبرد يخز
المفاصل كاويا ونحن كطالبيين غربيين مفلسين بإحدى مقاهي
مدينة صماء لا ترحم !

جلسنا ننتظر صديقا وعد بمد يد العون لنعود إلى أهلينا...
أبطأ كثيراء، عله «هرب» وهو الذي كان ينعتنا بالهروب
دائما ... فلماذا هربت يا هذا ؟

تطفلنا ذات صباح فدخلنا مقهى أنيقا بأحد شوارع
العاصمة.. نادينا النادل فما استجاب ! كررنا النداء مرات فما
أصغى ! قمنا، توجهت إليه، عاتبته في لطف.. رد يستفزك :
- أَعْجَبَكِ طَوْلُكَ ؟

بان غضب جارف بعينيك، اندفعت نحوه هائجا وسارع
نحوكما بعض الحاضرين، فصلوا بينكما، خاطبته هازئا :
- وأنتِ أَعْجَبِكِ شَارِبَاكَ الصَّغِيرَانِ التَّحِيْفَانِ المَكْوِيَانِ
المحدان بمسطرة وقلم رصاص ؟
<http://Archivebeta.sakn.net>

غادرنا المقهى نحو مقهى شعبي بإحدى زوايا «المدينة
العتيقة» مستعبدين رده على النادل ضاحكين كطفلين سعيدين
بأثوابهما القشبية ذات صباح عيد...

كنت تحب الأطفال وبالبسمات تلاتفهم وبالحنون
تصافحهم...

يالوجهك الطفولي ! يالبسمتك الأسرة وخصلات شعرك
اللامعة دون دهن ! يالقامتك السامقة كصومعة منتصبة بقرية
منزوعة بقلب القفر.

كنا قربك نحس باطمئنان كخماس بالجريد يحتمي من لظى
الهجرة بظل نخلة سقاها عرقا وعناء عند الأصائل والبكور.

أقتلتك المدينة التي ظلتك تتسكع بدروبها شهورا وأنت
مطارد تخشى عيون الرقيب ٩٩ لم رحلت ؟ لمن تركت أحبابك،
أوراقك، أشعارك، أفكارك ٩٩٩ أتركت الجميع للرياح الهوج ٩٩٩

حين التقيت بك قبل رحيلي ورحيلك لم أعرفك لوجهك
الناحل وقامتك الضامرة الصابرة لكن العينين منك كانتا تشعان
دفنا وقلقا، كانت الدنيا أمامك ضيقة بما رحبت..

جلستما بمقهى منعزل وعيناه على الرقيب، حدثك عن
إحباطاته وأفقه القاتم، عن الموت والانتحار، رجوته التمهّل
والانتظار وحديثه عن الأمل والانتصار، وأن الحياة أغلى من أن
تفرط فيها بسبب خيبة فالهب منشئ بكل الدروب... لكن الخذلان
كان قد قهرك، ودمرتك الأعياب الآخرين :

- أنا ريفي، لا أقبل التلاعب بي من أي كان... أنا بركان،
سأحرق من يحاول اللعب بي ثم أحترق !

افترقنا على أمل أن نلتقي.. لكننا لم ولن نلتقي...

كان قرارك حاسما، قاتلا، ساحقا.. شوهدت وجهه من تحب،
وجه من حاول اللعب بك.. ثم مضيت نحو البحر دون تمهّل بعد أن
نفذ الصبر لتتطهر في لجته كما في الأساطير...

طففت الجثة وارتفع أكثر من سؤال... أقتلك الحب أم دوامة
ظلتت تعيشها شهورا ٩٩٩ أم... ٩٩٩ أم... ٩٩٩

ما أصعب أن تعيش مطاردة، مقهورا، مخذولا، خائفا وأنت
النخلة صمودا والبسمة خيرا وجودا !

ابراهيم بن سلطان

الطفلة بداية البحر عند
...لأمسست نهاية أصفر موجة...
خافت منه...

ركضت مبتعدة عنه...
اختبأت خلف ظهر أمها
ترمقه بحذر..
تأملته طويلا بعينين تلونتا
بزرقتة..
فجأة ! انطلقت نحوه مرة
أخرى..

الطفلة التي طلبت بحرا !

تلاشى خوفها عندما سرت إلى قدميها الصغيرتين برودة الماء..
شعرت كأن عجوزا وقورا يدغدغ باطن قدميها..
شرعت تضحك..
تموجت ضحكاتها عبر أمواج البحر المتداخلة..
رفعت ثوبها قليلا..
توغلت مسافة وسط الماء منجذبة إلى اتساعات البحر
الرحبة..
انحنى. غمرت يدها داخل الماء. احكمت قبضتها على قطرات
منها..
فتحت أصابعها الصغيرة. تفتش عن سر زرق البحر..
وحينما هربت القطرات من بين أصابعها عادت تضحك من
جديد..

* * *

.. احمر قرص الشمس..
تداخل احمراره مخترقا زرق البحر..

قالت الأم وهي تقترب من الشاطئ :
 - «هيا. اخرجي من الماء. نريد أن نذهب».
 قالت الطفلة المنتشية بمداعبة الماء..
 - «لن أذهب. أريد أن أبقى».
 قالت الأم رافعة بصرها تجاه قرص الشمس البرتقالي :
 - «ايتها العنيدة. لقد تأخرنا. هيا نذهب».
 قالت الطفلة :
 - «.. أريد أن أبقى».
 - «قلت لك اخرجي من الماء.. غدا سنأتي مرة أخرى..
 اقتربت الأم من الشاطئ أكثر. غمرت المياه اسفل قدميها.
 انزعجت الطفلة لاقترباها.
 بكت ضاربة سطح الماء بيديها :
 - «.. لن أذهب. لن أذهب..
 نفد صبر الأم، صاحت :
 - «.. لا تكوني شقية. البحر لن يختفي».
 قالت الطفلة :
 - «إذا كنت مصرة على الذهاب الآن يا أمي. فلنأخذ البحر معنا».
 دهشت الأم..
 - «ماذا تقولين ؟ نأخذ البحر !».
 تابعت الطفلة..
 - «لم لا. سأحمله معي الى البيت».
 اندفعت الأم صوب الطفلة..
 أمسكت بذراعيها. جذبتها بقوة لاخراجها من الماء. ظلت
 الطفلة تصرخ، انتفضت مثل سمكة..
 ازداد احمرار قرص الشمس..
 سرت الحمرة في كل الأشياء..
 تساءل أحد المارة..
 - «مابال هذه الطفلة تصرخ هكذا ؟!».
 قالت الأم دون ان تلتفت إليه..
 - «تريد أن تأخذ البحر معنا!!».

علق الرجل :

- « يا لاطفال هذا الزمان. انهم يطلبون المستحيل ! ».

استمرت الطفلة تصرخ..

- « أريد البحر، أريد البحر... ».

لم تكف عن صراخها. تمردت على أصابع أمها. ألقت بجسدها وسط أمواج البحر، فاتحة ذراعيها على اتساعهما. همت باحتضان البحر...

كادت تغرق رفعتها أمها إلى أعلى، صفعتها. تعادت الطفلة في عويلها..

تحلق حولهما عدد من العابرين..

قال رجل من بين الحاضرين..

- « لماذا تصرخ هذه الطفلة ؟ ».

قالت الأم :

- « تريد أن تأخذ البحر »..

اقترب منهما الرجل. حدّق في الأم ملياً، ثم التفت ناحية الطفلة وقال بهدوء، وهو يبتسم :

- « ولم لا، فلنأخذ البحر ».

تعلقت به أبصار الحاضرين..

تفرّست فيه الأم. تأملت وجهه باستغراب وسخريّة.

وقالت :

- « تأخذ البحر. ماهذا الذي تقوله أيها الغريب ؟ ».

همس أحد الواقفين :

- « ماذا جرى للعالم لقد جنّ الكبار أيضاً !؟ ».

لم يهتم الرجل للذي قيل. خاطب الأم :

- « انني جاد فيما قلت. فليكن لها البحر... ».

اقترب الرجل من الطفلة التي مازالت تبكي، سألها بلطف :

- « ماذا تريدين ؟ ».

ردت بصوت هامس مختنق :

- « البحر. البحر... ».

قال الرجل :

- « اهدئي يا صغيرتي. ساحضر لك البحر.. وتأخذينه معك

كما طلبت».

لم تصدق الأم ما تسمعه...

أصاب الذهول وجوه الحاضرين..

لم ينطق أحد..

وقف الجميع في انتظار الرجل الغريب الذي تركهم، وذهب

لاحضار البحر..

الطفلة أيضا صمتت في انتظار حدوث شيء ما..

قرص الشمس صار دائرة حمراء..

البحر استكان واجما مكتفيا بانعكاسات احمرار الشفق..

بعد لحظات عاد الرجل الغريب..

تعلقت به الأبصار..

كان يحمل بين يديه ورقة مطوية. ما إن اقترب من الطفلة

حتى نشرها في مواجهة عينيها المذهولتين...

رأت الطفلة البحر يمتد بزوqته، وأمواجه، وفضائه،

وطيوره، وشمسه الحمراء الملتهبة..

ابتسمت الطفلة ابتسامة باتساع البحر..

أخذت بحرها من يد الرجل المبتسم...

نظرت الى أمها وقالت :

- «انه البحر. انه البحر. أوأيت يا أمي! يمكنني الآن ان

أحمله معي...»

بنغازي محمد المسلاتي

لا

شك أن اشكالية الجنس الأدبي تطرح على مجموعة من النصوص المسرحية المتشابهة والمتزامنة في الأدب العربي فهي متشابهة في طبيعة خطابها (خطاب إيديولوجي يقوم أساسا على مجموعة من الأفكار تعد حصيلة ثقافة مبدعيها في علاقتها بأمهات القضايا الفلسفية والفكرية العامة في الثقافة الانسانية

السرد واشكالية الجنس الأدبي في كتاب السرد*

(الغربية خصوصا) وهو خطاب ينبنى أحيانا كثيرة على نظام ترميزي يجد النقاد أنفسهم دائما في حاجة إلى تفكيكه وفهمه بل تصبح في أحيان كثيرة أيضا عملية التفكيك والفهم لهذا النظام عنصرا أساسيا من عناصر العملية النقدية).

- وهي متزامنة : لأن الأدب العربي في ما بين الحريين داهمت موجة من الكتابات المسرحية الحديثة في نفس الوقت تحوم جميعا حول معان مشتركة أو متشابهة وهي معان ميتافيزيقية تتصل بالوجود الانساني. وبذلك ظهر في الاستعمال النقدي مصطلح يعرف بالمسرح الذهني وهو في حقيقة الأمر مصطلح فضفاض يعكس حيرة النقاد أمام تصنيف مثل هذه النصوص، فهي لا تعد مسرحيات بالمعنى التقليدي للكلمة. فالعمل المسرحي هو أساسا من باب «المحاكاة» : محاكاة في الكلام وفي الإشارة والحركة وفي المؤسسات وفي الوضعية العامة التي تجعل العمل في علاقة مباشرة مع متلقيه في مستوى الفعل الإبداعي

* درس ألقى على أساتذة الأقسام النهائية في إطار التكوين المستمر

ورد الفعل تجاهه. وقد تبين أن مثل هذه النصوص (مسرحيات الحكيم الفلسفية - جبهة الغيب لبشر فارس والسدّ لمحمود المسعدي) لا تندرج ضمن هذا المفهوم بصفة شاملة وكلية، فهي أميل إلى أن تكون من باب التمثيل أو التشخيص وهو ما يميز طبيعة الخطاب السردى بوجه عام. ولذلك لجأ الكتاب أنفسهم إلى التبرير على أساس أن هذه النصوص هي نصوص قراءة وليست نصوص مشاهدة إذ لا يمكن أو يصعب تجسيما على الركب وفق المقتضيات الفنية للمسرح.

- ويبدو لنا هذا الاشكال بصفة أجلى في مسرحية السدّ، فالكتاب يواجهنا منذ الصفحة الأولى بعنوانه «السدّ» : رواية في ثمانية مناظر» ففي العنوان مصطلحان أساسيان :

رواية : من روى يروي بمعنى حكى وسرد - ترجمة للكلمة الفرنسية Roman

مناظر : منظر، من نظر، شاهد وهو استعمال لغوي - يحيل مباشرة على فعل المشاهدة أي على المسرح فهل يمكن أن نقول منذ البداية إن العنوان يطرح بطبيعته جنس هذا العمل الأدبي على أساس أنه ازدواج جنسين معروفين : القصة والمسرحية ؟ قد يكون ذلك ولكن الأكيد أن هذا العمل يقوم على عنصرين أساسيين هما السرد والحوار معا وهو قل ما نجده في الأعمال المسرحية التي تحترم جنسها.

1 - 1 - السدّ من حيث هو حكاية :

تميز إنشائية القصة بين الحكاية والحبكة. فكل رواية أو قصة - كتاب السدّ - يقدمه صاحبه على أساس أنه رواية في ثمانية مناظر - تفهم قبل كل شيء على أنها حكاية تروى : يقول Forester في مظاهر الرواية Aspect of the novel : تقص الرواية حكاية، إنه المظهر الأساسي الذي لا يمكن لها أن توجد بدون (1) وهي بهذا المعنى مصطلح عام يضم الأفعال والشخص في حين أن الحبكة هي تتابع عبر القراءة إذ هي بمثابة الخيط الذي يربط بين (1) عالم الرواية - المنشورات الجامعية 1972.

الشخص والأفعال معا وفق تركيب معين للبنية السردية.

لا شك أن الحكاية بالمعنى الذي أشرنا قاشة في هذا الاثر الأدبي ولكن أية حكاية هي :

1 - 2 - تقوم حكاية السدّ على مجموعة من الوظائف الأساسية أو الوظائف النواة على حدّ عبارة - ر. بارت - يمكن تحديدها على هذا النحو : النزول بالمكان (نزلنا بالخيال وحللنا بما كنّا نتمنّى) اكتشاف المكان (ذهبت منذ ساعة في القبيلة فسرت وجلت / ومع ذلك فقد سرت فيهم حتى كدت أن أخرج عن آخر بيوتهم / وسألتها فقالت أنّها تتطهر - ماذا يقول القوم عن السدّ وعني ؟ - إن شئت أن نعرف رأيهم في السدّ فاصبر حتى تنطقهم صاهباء) - الحفل الديني / ضرب الخيمة والاختبار الأوّل (فشل غيلان في دعوة الاصوات الهواتف : هذا يا غيلان أوّل الحدّ) / رسالة صاهباء (مقاطعة الغرباء) / غياب ميمونة / إنجاز السدّ والاختبارات الجديدة / ظهور ميارى ومعانقتها لغيلان / العودة الى بناء السدّ / قيام العاصفة وانهار السدّ / غياب غيلان وميارى.

وكلّ هذه الوظائف يمكن اختزالها ضمن ثلاثة محاور رئيسية وهي : الوصول والبحث والملاحقة.

1 - 2 - 1 محاور الوصول :

- الحلول بالمكان : ها قد وصلنا يا غيلان - لقد وصلنا وانقطع الرّحيل.

- الوصول بمعنى تحقيق الفعل أو الشروع في اتجازه : ومع ذلك فقد نزلنا بالخيال وحللنا بما كنّا نتمنّى وانتصبنا وقرّ اليقرار - وصول جماعة من الزهيان : قومة صاهباء. لعنة الكون على من لا يني عنه الرّحيل.

قصة هامان : ثمّ تهياً له الامر فارتحل عن الجزيرة وعبر البحار ودخل مدينة سيرام وولج نهر أهلها من رجال ونساء / ثمّ احتاج أن يعود الى الجزيرة فعاد وامتلكته كذى قبل.

الوصول المستحيل : فدخله في ذلك اليوم الجنون / وهو لم يبلغ منه شيئاً (العقل) / وصول ميارى (152) الوصول بمعنى الانتصار : بلوغ العمل الى منتهاه «الليلة يا ميمونة ليلة الفوز، ليلة الفلاح والنصر» (169).

- بمعنى اللاوصول : «هذه يا غيلان النهاية وقد طويت طريقي (169) - الليلة ليلة الخيبة والسقوط - الآن بلغا المنية واستقرأ» (186).

- معنى الرحيل وهو نقيض الوصول :

1 - 2 - 2 محاور البحث :

- اكتشاف ألهة المكان : ما صاهبَاء يا غيلان (ص 69).

- اكتشاف الطقوس الدينية التي يمارسها القوم : أرأيت يا غيلان : الماء ! ثم وسيئة ما غنّت هذه الأطياف الهواتف ؟ ما ترين يا ميمونة ؟ ص 70-71.

- اكتشاف فوضى المكان وخلله : إنما ذهبت في الوادي فانحدرت فيه ورأيت الهاوية يفتور في عينيها ماء العين (72) / أنظري مياه المطر لا تسنح إلا على الجبل، كيف تركوها منذ آلاف السنين تسيل فتنحدر، فتلحق مياه العين، فتذهب فتغور في الهاوية بمنقطع الوادي.

- اكتشاف المكان : بطلب فرحة وفسحة.

- اكتشاف مظاهر حياة القوم : ذهبت منذ ساعة في القبيلة فسرت وجلت.

- اكتشاف طبيعة قومة صاهبَاء : البغل، أذئاب ؟ أم أطياف خالي العصور في تيه العذاب ؟ أم كلاب، أم صخور وأمواج واضطراب ؟

- البحث عن الخلاص والمصير : أسأل : قالت وما طريقي بعدك ؟ فقال : العقبة الوعرة (ص114).

هامان : أريد أن أقبل السماء والزرقعة.

1 - 2 - 3 محور الملاحقة :

- إنذار أصوات النبيّ : « وائني لأراها تنذر ص 76 » / ائني
أراها تنذر يا غيلان ص 79 /

- الدعاء على السدّ وعلى غيلان : هدهد الهد / واسدد السدّ /
وانقض المد / واصعق الرّاح.

- صوت الهاتف : انك العاجز. انك العجز، ص 96 ؟ أمر
النبيّ : حرّم عليكم أن تقربوا الغرياء.

- تحامل ميمونة على السدّ : لقد طلبت مرارا فلم أعرف
سبب تحاملك على السدّ.

- ملاحقة المصاعب والعراقيل : سرقة الات غيلان - مرض
العمّال - غضب الطبيعة (انفجار الماء. هلاك قافلة الحديد - مرض
غيلان، غضب العمّال).

- ملاحقة الفناء : لو مت يا غيلان - غياب غيلان ومياري
(الفناء).

تلك هي أبرز المحاور التي تنتظم في أطوارها الوظائف
الحكاية المركزية لكن حكاية السدّ تتضمن ثلاث حكايات ثانوية هي :

1 - 3 - 1 : الرؤيا (المنظر الثالث) : تروى ميمونة الحكاية
وهي تقوم على الوظائف السردية التالية : قيام السدّ على جماجم
الموتى / تسرّب الى الهاوية عبر الجماجم - دك السدّ - اليقظة.

1 - 3 - 2 : حكاية أسأل ونائلة (المنظر السادس) وتقوم
على الوظائف التالية : قرار الرّحيل - خضوع نائلة - الرّحيل
إلى الممات وراويها غيلان.

1 - 3 - 3 : حكاية هامان : وراويتها أيضا ميمونة : أما
وظائفها فهي : ولادة هامان - ميله إلى الفساد واللذة - توفه إلى
السّماء عن طريق العقل ومجاهدة النفس - خيبته وعودته إلى
عالم الحسّ - محاولة العودة إلى العقل - خيبته وجنونه.

1 - 3 - 4 : ان اختلاف رواة هذه الحكايات يتصل باختلاف وظائفها في السياق السردى، فحكاية الرؤيا وحكاية هامان ترويهما ميمونة وتمتازان بشيء من الاطناب والاطالة (كثرة الوظائف السردية) أما حكاية أسال ونائلة فيرويهما غيلان وتمتاز بالاختزال والقصر (قلة الوظائف) وهي كلها جاءت على سبيل المعارضة، فحكاية الرؤيا، جاءت على سبيل معارضة حكاية السد كلها (فشل المشروع في صورة مأساوية) وحكاية هامان تعارض حكاية غيلان، فقصته لا تختلف عن قصة هامان كما تراها ميمونة وهي قصة التجربة الوجودية المحدودة المتمثلة في التوق الى الالهية الذي ينتهي بالخيبة. أما حكاية هامان فهي كذلك معارضة لشخصية غيلان واختزال لفلسفته كما أنشأها هو بنفسه، أما منطق تضمينها فهو منطق الجدل فهي حكايات موظفة توظيفا فكريا، لتأكيد غلبة حجة أحد طرفي الخطاب على حجة الطرف الآخر أي بمثابة الأمثال التي تضرب لتقوية منطق التفكير والحجة.

1 - 4 : لا شك أن الحكاية بصفة عامة تبطن حبكة تنمو في النص نمواً حدثياً عمودياً (النزول بالمكان واكتشاف - بناء السد - العراقيل (وهي عديدة لكنها من طبيعة واحدة) - قدوم ميارى - بناء السد - انهيار السد - غياب غيلان وميارى - وما تخلل هذه الوظائف التوزيعية من حكايات أو أحاديث، فهو من باب تبرير هذه الحبكة ومنطقتها.

والأفعال في حد ذاتها وهي التي تنسج الوظائف السردية أو المقاطع داخل المشاهد تخضع بدورها الى منطق واضح في التعليل وهو تعليل ايدىولوجي أساسا يتصل بفكرة أساسية وهي فكرة الحرية والمسؤولية : إن الانسان حر في الكون حرية مطلقة وهو إذ يفعل فلكي يجسم هذه الحرية ويمارس مسؤوليته وهو لا ينكر وجود الله ولكنه ينكر مسؤوليته المطلقة.

مثال 1 :

ها قد وصلنا : يعقب هذه الوظيفة مقطع تفسيري تبريري

يوضح معنى الوصول ويعطيه بعده الرمزي فهو عند غيلان «النزول بالخيال والحلول بما يتمناه» وهو الوصول الى منزلة انسانية أرقى وهي «الكفر بالنواميس والحدود والعراقل وإنكار العجز والاسلام ونفي العدم والايمان بالفعل، ويتخذ هذا المقطع أسلوب الجدل القائم على الأطروحة والأطروحة المضادة، فبالنسبة الى هذه الوظيفة تمنح ميمونة وظيفة الوصول معنى مغايرا بل ومناقضا، فهو «حلول الدود بالثمرة والثمرة الى التعفن والفساد» والخيال أكل أكل جرأف، يأكلنا نحن» وهو «من أكلة البشر» وهكذا دواليك بالنسبة الى جل الوظائف السردية.

مثال 2 :

وهو مثال بليغ : فالمنظر الرابع كله (وهو المتعلق بالحجرات الثلاث) جاء تفسيراً للوظائف السردية في المنظر الثالث وخاصة هذه الوظيفة السردية «هذه الشمس ! وما أصحابنا وما الآلات ! جيشا من السواعد والحديد والأيدي والدواليب والعزائم والصدور !» ولذلك فهو يبدأ بهذه العبارة التعجبية «ما رأيت أغرب من شأن هؤلاء الغرباء» وهو تفسير في جملة جاء في شكل أطروحة مضادة لأطروحة غيلان : «قولي لنا يا أختي ما يريد هؤلاء الغرباء ؟ يا شوقا الى العلم، يا لين الروح ذيارا، ما تريدون أن يكون ؟ إنهم لا يريدون شيئا، إنهم يتوهمون أنهم يريدون... انظريهم عند الهاوية بمنقطع الوادي، أنظري كيف يسيلون عرقا ويجهدون أنفسهم وتترامى قواهم عن أجسادهم كشر النار عن النار... كذا هم، لم يقصر فكرهم عن شيء مثل قصوره عن إدراك ما تقتضيه الحياة من التسليم والجبن والاسلام» ص 110.

1 - 5 الشخصوس :

يصنف الشخصوس وفق شبكتين هما :

- الشبكة الأولى : صاهبَاء ونبيها وهواتفها وكهنتها وقومها.

الشبكة الثانية : غيلان وميمونة ورجاله وبفله.

1 - 5 - 1 : لا يجد القارئ صعوبة في فهم طبيعة شخص الشبكة الأولى، إذ يطنّب السارد في الوصف من خلال السمات المخبرات التي يوردها. فصاهبَاء حاضرة غائبة تسند إليها مجموعة من الصفات : قرن طويل، قرن فيل، ربة اليبس، ربة القحط هي الصخرة الربة...

وللنبي جلد أغبر اللون، لم ير الناس أشدّ هزالاً منه، كثير الأصوات لا تحصى هواتفه... وقوم صاهبَاء يتطهّرون بالشمس وبالقيظ، والجارية «مفتّحة إلى الشمس»، قائمة النهدي رخوة كالذائبة لذة.

والرهبان «في خضوع ذل ومشية قهقري» وهم مشتملون يبرانيس أسباط وليس يبدو منهم إلا الرؤوس ناتئة كالعنصل وقد نبتت في قللها خصال من شعر سوداء، مرسله كضفائر النساء...».

إنّ التناسب في الصفات جامع بين هؤلاء الشخوص، وهي صفات تحوم كلّها حول معاني اليبس والصلابة والشدة في مقابلة مع معاني الماء والليونة والارتخاء. ولكن التراتب بين هؤلاء الشخوص يؤكد أنّ العلاقة بينهم تخضع لقاعدة الاشتقاق دون قاعدة العمل فلربة نبي وللنبي هواتفه وللكل قوم يتبعون تعاليم وطقوساً مرسومة، فالعلاقة بينهم إذن علاقة تراتبية لا تتغيّر ولا تتبدّل.

1 - 5 - 2 : يمثل غيلان محور الشبكة الثانية وقد ركّز السارد في وصفه على العلامات بدون أن يلج كثيراً في مستوى المخبرات، وتقدّم العلامات من زوايا مختلفة :

- غيلان كما يصفه السارد : يملك غيلان الفكر في سده - قد فكّ طلوع الشمس عقله - يقوم فرحاً وعزماً.

- غيلان كما تصفه ميمونة : إنّ الخيال أكلك وأنت أكله - لو جعلت مدرسة لتعلّم الآلهة البيان - أنّك العاجز - أنّك العجز - هذا غضب المغلوب يا غيلان - امكاناتك بديعات نفسك - لكنك

متصامم أصم...

إنَّ التَّوَافِقَ بين صورة غيلان كما حدَّدها السَّارِدُ وصورته كما حدَّدتها ميمونة قائم، فالصفات التي تمنحها ميمونة لغيلان تؤكد موقف السَّارِدَ منه. ولكن هذه الصفات جميعا تشكل أطروحة مضادة لصورة غيلان كما يشكِّلها بنفسه وهي صورة تستنتج استنتاجا من خلال الفعل الرئيسي الذي ينجزه غيلان وهو بناء السدِّ والأفعال الجزئية اللاحقة به.

وتمثِّل ميمونة طرف المحور في هذه الشبكة وهي توصف من زوايا ثلاث :

ميمونة كما يراها السارد : يقدِّم سارد ميمونة على أنها امرأة بدون صفة أخرى ثُمَّ يقدِّم مجموعة من العلامات : تملك ميمونة خواطرها - مقشَّرة - بصوت خافت ونفسها الى غيرها تقول - تمسك عن الكلام وتبكي الى القمر والنجوم وحدها - تذهب نفسها في البكاء فينشأ في باطنها عين جارية كالجواني يتقلبن عيونا وسواقي في أساطير اليونان.

ميمونة كما تصف نفسها : إذا كان أيماننا بالمرمر الصلِّب والخط المطلق وغود الحياة اليأس فقد أمنت منذ زمن طويل، سئمت هذه الاعالي والسماءات والقمم والذروات لا تدرك وقد أخفقت يا غيلان حتى في حبِّي وحبِّك.

ميمونة كما يراها غيلان : يا شكِّي وحيرتي - أنت يا ميمونة، ألسن الشكِّ والحيرة ؟ والصَّيْحَةُ في الصَّيْحَةُ ميمونة يا دودتي ويا دائي ويا صيحة الحيرة في روحي.

إنَّ التَّنَاسُبَ بين زوايا الوصف قائم وهو كذلك تناسب بين الصفات والأفعال، فميمونة في علاقتها بغيلان تحقق قطب المحور، فعلاقتها به علاقة اتصال وانفصال ذات دلالة فكرية وفلسفية فهي زوج غيلان : تحويهما معا الخيمة والجبل والكهف، وهي إذ تفارقه وتغيب عنه فلكي تعود إليه، وهو لم ينفصل عنها جسديا أو ماديا الا في نهاية المنظر الأخير، والعلاقة علاقة انفصال فميمونة تغادر في المكان وتنفصل عن غيلان، وهي علاقة انفصال إيديولوجي فهي

طرف رئيسي في الجدل الفكري حول معاني الفعل والخلق والالوهية، فهو انفصال يلوح منذ الصفحة الأولى من الأثر (ماذا سمعت ؟/ المنظورات لا تسمع، المنظورات ترى أولاً ترى / إنه جبل وليس بجبل / إنه جبل وليس بجبل... ما هذا المنطق الجديد) ويستمر هذا الجدل إلى آخر الكتاب مجسداً تناقضاً في الرؤى بين غيلان وميمونة ويؤكد منطق الأطروحة والأطروحة المضادة.

بيد أن لغيلان وميمونة علاقة بيمارى، وهي في حقيقة الأمر علاقة ثانوية، لا تضيف شيئاً ذا بال للعلاقة المحورية، فهي لا تعد وأن تكون بمثابة المعين للبطل لا غير، إذ لا تحدث حالة الانشطار والتعزق في الشخصية المحورية، وكذلك الشأن بالنسبة إلى البطل، فهو وإن كان بفلا مشدوداً إلى الأرض، يسند مواقف سيده.

تجمع بين الشخصين إذن شبكتان قوام الأولى الانسجام والثانية التناقض ولكن علاقة صراع أكيدة تشد بينهما وهو صراع قوامه الفكرة والفكرة المضادة :

أفكار غيلان وميمونة # أفكار الأحبار الثلاثة
أفكار غيلان وميمونة # صلوات ودعوات قومة صاهباء
أفكار غيلان وميمونة # تعليل الهواتف

ومحركة قانون الفعل والفعل المضاد. فكل حركة في اتجاه انجاز المشروع تعقبها حركة في اتجاه ابطال المشروع نفسه وبذلك يتضح لنا أن قاعدة العلاقة بين الشخصين ونموها هي قاعدة الاشتقاق، فالفكرة تولد الفكرة والفعل ينتج الفعل، فلا تحكم إذن في هذه العلاقة لقاعدة العمل إذ لا تتبدل هذه العلاقات ولا تتطور فهي علاقة مستقرة رغم تعدد صورتها على مستوى الأفكار والأفعال.

1 - 5 - 1 في أسلوب السرد :

يقوم النص في «السدة» على أسلوبين متميزين هما الأسلوب المباشر (الحوار) والأسلوب غير المباشر (السرد بمعناه المعروف) وإذا كان الحوار من سمات المسرح فإن السرد فن روائي، إن التدخل المباشر لا يكمن فقط في تقديم المشاهد كما تجرى العادة

في الآثار المسرحية، بل بتقاطع مع الحوار داخل المشهد ذاته، ثم إنَّ وظيفته ليست مجرد تقنية تساعد على إخراج المسرحية بل تلعب المقاطع السردية دورا وظيفيا رئيسيا في النص وللأسلوب المباشر نوعان من الوظائف : وظائف وصفية ووظائف سردية، فالوظائف الوصفية تتعلق بالمكان كما تتعلق بالآطار الطبيعي العام والمؤثرات أيضا. وهي وظائف في النهاية بمثابة الاستراحات التي تقطع الحوار الذي يطول ويتكرر، بيد أن الوظائف تكون أيضا سردية خالصة ترتبط أساسا بالحدث ونموه ويمكن تصنيفها على هذا النحو :

- وظائف الوضعية الابتدائية : امرأة ورجل يصعدان في عقبة / يجران وراءهما بغلا / تنتهي العقبة عند كهف / فيقفان / ويوقفان البغل.

- وظائف سردية تهين للأسلوب المباشر : تميل على البغل / يحطان عنه / يلقيان ذلك كله / تجلس هي على حزمة أوتاد / تمدّ يدها / تتناول دلوا في جملة المتاع / وتجعل تعبث بها / يبقى البغل واقفا تتكلم هي : (ثم يأتي الأسلوب المباشر).

- وظائف سردية تثيرية تتصل بالوظائف الأخرى الوصفية في مستوى الدلالة أي تأتي تعميقا للدلالة : صورة الطائر الأسود : يخطر فوق رأسيهما طائر غريب فيمر سريعا أسود فلا يطرقان، فيضربه ضربة تطرحه على الأرض.

- وظائف اختزالية : أي تختزل مجموعة من الأحداث (في مقابلة مع الوقف أو الاستراحة) تملك ميمونة خواطرها ويملك غيلان الفكر في سده وينعزل عنها وتنعزل عنه / كاد يتكامل السد.

= وظائف تؤسس في ما بينها نسقا تأليفيا : الطائر الغريب : يمر فوق رأسيهما سريعا أسود هامة أو صدق / يصيح صيحة ثقيلة سوداء كالوحل / يعم الدنيا شيء من الظلام قليلة كالغيبه أو كالبحه / خروج الحية / يسمع عواء الذئب ثلاثا طويلات كالنحيب.

5 - 2 ما بين الأسلوبين المباشر وغير المباشر :

يؤدّي الحوار أحيانا وظيفة تفسيرية للسرد : إذ يكون في كثير من الأحيان بمثابة التعليق على الوظيفة السردية فعندما يمر فوق رأسيهما الطائر الغريب، يبدأ الحوار بكلام غيلان : « لا بد أن تكون انقلبت الأصوات الهواتف طائرا. وأحيانا أخرى يكمل الوصف داخل السرد الحوار، فهو بالتالي يعبر عما عجز عنه الحوار لأن الحوار يؤدّي خطابا يسمع ولا يشاهد (وتأخذ في رقص وإيقاع ورعد وأرجاع...) وقد يكرر السرد وظائف وردت في الحوار (وتتعالى الصيحات ب: هلهباء هلهباء سبحت صاهباء وقد يتمه ويواصله (تجعل البرانيس تغربل وترحى رفيق الطائر الميمون كأنها سراپ مجنون) وقد يكون أيضا تعليقا على فعل حوارى : (ولا يهمّ الرهبان ما تقول البغال) أو اختزالا لمجموعة أحداث توحى بتقدم السرد وإخراج المشهد من وضعية مهددة بالسكون والرتابة (يدعون صاهباء ويسألون للماء النّار وللسدود الدمار وليدى غيلان أن تتبا) وأحيانا أخرى يكون تعويضا للحوار (ويزيد فيقول : وأما الأصوات الهواتف ونبيها وصاهباء فعليها لعنتي لعنة الانسان...) وتذبيلا للمشهد الحوارى برمته، ذلك أن المشهد لا يبلغ منتهاه الا بالسرد (ويسمع زلزال عمل البنائين ورجال غيلان بمنقطع الوادي يحركون ويرفعون ويصرخون...)

2 - 6 : إنّ الظواهر السردية في كتاب السدّ عديدة ومتنوعة وهي تثير اشكالا عميقا يتعلّق بطبيعة الجنس الأدبي فهل هو جنس أدبي تلفيقيّ يجمع بين جنسين أدبيين معروفين (الرواية والمسرحية) أم هو شكل أدبي طريف تجاوز مفهوم الكتابة المسرحية السائد عندما أخذت أدبية القصّ من عناصر القصة أو الرواية الشيء الكثير إن اتخذت بوجه عام شكل العمل المسرحي، لكننا نلاحظ أن محمود المسعدي لم يجدد هذه التجربة بل تحول الى سارد من خلال أعماله المعروفة (حدث أبو هريرة قال - المسافر) ممّا يجعلنا نؤكد أن عبقرية سردية تمثيلية أكثر من اعتبارها محاكاةية فهو في هذا الكتاب «السدّ» روايتي يحكي أكثر من كونه كاتباً درامياً يحاكي.

محمد الباردي

تقديم

I

(1) لن أتحدث في هذه الورقات عن محتوى ما أكتب ولا عن أسلوب الكتابة عندي. ولن تكون هذه الشهادة لتقييم تجربتي القصصية، فهي ليست محطة وليست وقفة تأمل تتيجها لنا هذه الندوة حول القصة القصيرة في تونس والتي نتمنى

*
القصة القصيرة
في تونس
اتجاهات وقضايا

أن تصبح سنة متأكدة تتدعم وتتسع لتشمل كل أنواع الكتابة القصصية والروائية في تونس ولم لا على امتداد المغرب العربي الكبير. يلتقي فيها الكتاب والنقاد والمتسابقون لنيل جائزة مالية أتمنى أن تكون مهمة ومحفزة - إنما شهادتي حول انطلاق الكتابة القصصية عندي وأرضيتها من ناحية، وحول التوجه الأساسي لهذه التجربة من جانب المنهجية من ناحية ثانية.

(2) العنن : (المدونة)

إن الكتابة القصصية عندي محدودة الكم رغم امتدادها على أكثر من عقدين. فانا مقل في هذا الجانب وذلك ربما يرجع لاشتغالي بأنشطة أخرى مثل النقد والبحث العلمي والسياسة. وكان لا بد من القول بأن الكتابة القصصية تحتل في وجداني المكان الأرفع والمحبيب. ولا أدل على ذلك من ذلك الملف الذي يصحبني دائما والذي أرجع إليه كل أسبوع مرة على أقل تقدير والذي أضعه في مكان بارز للعين صباحا ومساء والذي أضع فيه جذافات وأوراق مشاريع الكتابة القصصية، فهو بمثابة بنك

للافكار وتخطيطات تعدّ بالعشرات لكتابات مستقبلية. أعتبره المعين الذي لا ينضب والعين التي تروي وتلبّي الحاجة للأفكار الجديدة كلّما شعرت بالحاجة إلى ذلك.

أمّا ما أنجزته إلى حدّ الآن فهو متواضع نسبياً :

(أ) مجموعة قصصية أولى : ويبقى السؤال - الدار العربية للكتاب 1981 - 112 صفحة (22 أقصوصة).

(ب) مجموعة قصصية ثانية : الخبز والحبّ والهذيان - دار بوسلامة 1990-1991 - 180 صفحة (31 لوحة وأقصوصة).

(ج) بعض الأقصوصات الأخرى المخطوطة والمنشورة نذكر من هذه الأخيرة أقصوصة : التفصيل - مجلة لوتس (1).

أمّا التجربة الروائية فهي لا تتعدّى :

(أ) رواية منجزة بعنوان : العار والجراد والقردة (مهيئة للنشر) (2).

(ب) رواية : الشرطيّة وهي يصدد الإنجاز.

II - الإنطلاقة والأرضيّة <http://Archive.org/details/ArabicLiterature>

1 - كلّنا عشنا في مرحلة الطفولة، على وقع خطوات « الغولة » (3) المهرولة، تحكيها لنا جدّاتنا أو أمّهاتنا أو أخواتنا، ونمّي ذلك الاستعداد الفطري فينا ما كنّا نسمعه في حلقات

(1) مجلة لوتس : مجلّة اتحاد كتّاب آسيا وإفريقيا - عدد 67 - سنة 1989 ص 29 وما بعدها.

(2) نشرت بعض فصولها :

- الصباح - 8 مارس 1979 ص 12

- الصباح - 28 فيفري 1980 ص 12 (من خبايا النفس)

- الفكر - ماي 1979 ص 90.

- قصص - عدد 48 - أفريل 1980 ص 69 (أحداث داخل النفس وداخل الواقع)

(3) الناصر خمير : الغولة (L'ORESSÉ - Maspéro) باريس 1977 (قصص منطقة قربة)

الشيوخ والأميين عن بطولات أبي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن والسندباد البحري. حين كان يلتف جمع من الفلاحين في ليالي الشتاء حول بعض الشيوخ ممن يحسن القراءة فيترجمونه، فيشرح في قراءة أحد الأسفار الصغراء المهرثة، فتفتح العيون والأذان والأفواه ويخيم السكون إلا من بعض الهمهمات والآهات والدعوات.

ثم كانت مرحلة التعليم الابتدائي وقصص عطية الأبراشي وكامل كيلاني وبعض الأعداد القليلة من مجلة السندباد للأطفال (مصرية) لكن، عشت كذلك دروس التاريخ الاسلامي، من غزوات الرسول الكريم. إلى بروز الدولتين الأموية والعباسية وكانت خرافات فقط لأن مدير مدرستنا الذي كان يدرسنا التاريخ، كان يعتبر هذا الفن فسحة وعبرة فلم نكن نسجل أي درس ولم يكن يمتحننا أبدا. كنا نضم أيدينا ونغلق كتبنا وكراريسنا وننصت.

أما في التعليم الثانوي فقد فتحت لي في رحاب الصادقية، آفاق رحبة وبدأ الشغف بالمطالعة باللغتين العربية والفرنسية، ثم تحوّل الشغف إلى نهم. ثم لعقت اللغة الألمانية فإذا بأدب كنا نجهل حتى وجودها ولا يزال غالبية التونسيين يجهلون.

فقرأت كل ما عثرت عليه من كتب طه حسين وجبران خليل جبران والمنفلوطي وتوفيق الحكيم وكرم ملحم كرم وجرجي زيدان أساسا كنت أنتقل من مكتبة لأخرى (منزل تميم - نهج الجبل - مكتبة المدرسة الصادقية...) بحثا عن عنوان فاتني. كل هذا خلال الثلاث سنوات الأولى من التعليم الثانوي. وشرعت أكتب، فكانت أول أقصوصة : واقم شاب بتاريخ 30 جوان 1961 ونشرت بنشرية الشبيبة المدرسية بتونس عدد 6 و 7 س 4 ص 13 وما بعدها - مارس ، جوان 1963 (4).

وهذه المطالعات الأولى [بالفرنسية روايات : الكسندر دوماس، جيل فارن، بلزاك، بيار لوتي، جورج ديهامال، جورج ساند فيكتور هيكو... الخ] المتنوعة لغة وأسلوب سرد وتجربة،

(4) نشرتها ضمن مجموعة ويبقى السؤال من ص 10 إلى ص 13.

وإنْ أثرت فيَّ ولا تزال جعلتني أؤمن منذ المنطلق، بأنْ على الكاتب ولو كان مبتدئاً، أن ينطلق من ذاته ومن محيطه ومن مشاكلهما.

III المراحل :

مررت في تجربتي الكتابية بمراحل هي :

(أ) مرحلة العاطفة والذات : مع تساؤل كبير حول معنى الحياة وأهدافها ومحاولة لفهم عناصر الشرّ التي يزرع بها المجتمع، إذ كنت أشعر - وما زال - برفض داخلي عميق لكلّ ما هو قبيح ومضرّ.

(ب) مرحلة الوعي والالتزام : كان الوعي فيها أعمق وأهمّ بتعمّد مشاكل الحياة ممّا تبعه ارتقاء وسط معمرة الممارك الإجتماعية والسياسية مع الالتزام بالعمل من أجل المجموعة واقتناع تام بضرورة ذلك في حياة كلّ فرد ولأنّه لا إمكانية بدون ذلك لبناء مجتمع راق ومتطورّ. فكان الالتزام بالقضايا القومية مثل قضية فلسطين وبالقضايا الوطن الأمّ الطامع الى تجاوز معوقات النهضة بعد سنوات الانحطاط والاستعمار وما يجتج اليه بعضهم من محاولة لكبت الحرية وكبت تطلّعات المواطنين لأخذ نصيبهم من الهواء والشمس وخيرات البلاد المادية منها والفكرية

وقد تزامنت هذه المرحلة مع بعث نادي القصة التابع للنادي الثقافي أبي القاسم الشابي بالوردية، أواسط الستينات، والذي رعاه ولا يزال شيخنا وأبونا محمد العروسي المطوي والذي استطاع أن يجعل منه ورشة باتم معنى الكلمة، ورشة حيّة تتلاقى فيها وتتصادم الآراء والتجارب المختلفة وتتعایش كذلك، تأخذو تعطى. فكانت مثالا حياً للطموح والجدّ والبحث عن الجديد والتجاوز في مناخ من الحرية شبه مطلق. وما أزال أحسّ بطعم تلك النقاشات الساخنة جداً، الحادة أحياناً ولكنها ما كانت لتصل أبداً إلى حدّ التنابز أو الخروج عن الاحترام. وكان هناك نوع من التسابق بين أعضاء النادي في كشف الروايات الجديدة والكتاب

الجدد والأساليب الكتابية المثورة للأساليب الكلاسيكية، ونوع من اللغات للحصول على تلك النصوص، وكانت الكتب أقل تداولاً من اليوم، وكذلك كانت ترجمة النصوص النظرية حول مناهج وطرق السرد والكتابة ومحاولة لفهمها وهضمها وتطبيقها فيما نكتب من إبداع ونقد.

فكانت مرحلة نادي القصة وانطلاقه (5) من أهم محطات الكتابة عندي. لأنها ساهمت في بلورة نظرتي الجمالية وفي تنمية تجربتي القصصية بما أحدثته من خلق مناخ مختصر قوامه المعرفة والحرية. فجاءت هذه المرحلة لتدعم توجهي في الكتابة، ذلك التوجه الذي برز قبيل سنوات قليلة.

ج) مرحلة الكتابة التجريبية (6) : وهي مرحلة ثانية أو قل هي جاءت بين المرحلتين السابقتين، وذلك تأثراً بما قرأته للكتاب السرياليين والفرنسيين منهم بالخصوص...

ولكن هذه المرحلة لم تعمر لدي كثيراً، إذ سرعان ما رجعت للكتابة الواقعية والرمزية، فلغتي قد تكون كلاسيكية في هيكلها وبنائها ولكنها مع ذلك تنحو نحو الرمزية مع مسحة رومنطيقية، فتطرح مشاكل الساعة.

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

IV خاتمة :

وهكذا ورغم هذه المراحل الثلاث واختلاف توجهاتها، فقد بقيت محافظاً على بعض الأسس المبدئية للكتابة، وعلى نفس المشاغل والاختيارات (7).

(1) - فرغم المغريات للكتابة للمثقفين والخواص، أي الخاصة،

(5) جلول عزونة : خواطر حول مجلة قصص (العدد الأول). الصباح 10 نوفمبر 1966 ص 4.

(6) مسعودة بوبكر : الخير والحب والهديان، التجريب دائماً - الصحافة 9 ماي 1992 ص 8.

(7) انظر استجوابات لجلول عزونة :

(أ) - من طرف : عبد الرؤوف بوفتح - الأيام : 22 ماي 1986 ص 12.

(ب) - من طرف : الحبيب بن فضيلة - البيان : 9 نوفمبر 1987 ص 11.

فإن الكتابة، بالنسبة لي يجب أن تتوجّه لعموم المواطنين وأن تثير مشاغل المجموعة. والمشاغل الصغيرة، رغم أهميتها فإنها يجب أن تصبّ آخر الأمر في مصبّ الاهتمامات الكبرى للمجموعة البشرية التي ننتمي إليها سياسياً وجغرافياً وحضارياً.

(2) - رغم قيمة ما يكتبه الغرب. ولا بدّ من الاطلاع عليه والاستفادة منه تقنياً ومعرفياً، فإن الكاتب القصصي والروائي، حسب رأبي، لا بدّ له من الغرف من تراثنا الثري ومن جونا الاجتماعي ومن نفسية المواطن العربي.

(3) - عدم اللهاث وراء موضوعات الأدب - وفي الآن نفسه الاطلاع عليها ومحاولة كشف ما تحمله من تجديد حقيقي - ولكن الأديب الحقّ هو الذي يمكنه أن يسبح ضدّ التيار، إن لزم الأمر. ولم لا ؟ ديدنه في كلّ الحالات :

(أ) الصدق مع الذات قبل كلّ شيء.

(ب) ومع الوطن والمجموعة البشرية التي ننتمي إليها.

تبقى كلمة أخيرة حول طريقة الكتابة مندي :

- تنبجس الفكرة، فأسرع عادة إلى تسجيلها في مسودة (هنا يأتي ملفّ بنك الأفكار).

- تعيش القصة معي أياً ما وأحياناً أشهراً، مع شخصياتها وجزئياتها، أركبها وأنميها وأغيّر ملامحها وتصرفاتها.

- أكتب القصة وقد نضجت في داخلي وتخمرّت. فلا أشطّب كثيراً ولا أغيّر إلا قليلاً في معطيات الانطلاق، ورغم إعجابي الشديد بفلوبير الذي يكتب يومياً حوالي عشرين صفحة ولا يبقى.. منها آخر النهار إلا صفحة واحدة، كثيراً ما يشطّب نصفها ويغيّر أغلب جعلها، فإنني لا أنهي ذلك المنحى وأكتفي بإصلاحات جزئية وإضافات محدودة وتغييرات ضرورية وربما هذا الجانب يمثل إحدى النقاط السلبية في كتاباتي، رغم أنني صرت، مع الأيام، أكثر تشدداً مع نفسي ومع ما أكتبه.

مراجع

أولاً : حول كتابات جلول عزّونة :

(1) ما قيل في كتابة جلول عزّونة - ضمن مجموعة : ... ويبقى السؤال من ص 106 إلى ص 111 (انظر آراء كلّ من : أحمد الهرغام - حبيبة بن فضل - محمد الهادي السويسي - عمر بن سالم - يوسف بن ساسي - محمد مواءة - عز الدين المدني - خيرة الشيباني - محمد المختار جنّات - عروسيّة النالوتي - محمود التونسي - سمير العيادي - محمد الهادي العامري - عبد السلام خروف.

(2) آراء في كتابات جلول عزّونة ، ضمن مجموعة : الخبز والحبّ والهذيان - من ص 161 إلى ص 177، إضافة إلى آراء من ذكر سابقا انظر آراء كلّ من : محمد الهادي بن صالح، الميزوني البنّاني، مصطفى المدائني - عبد الرؤوف العفيف - جان فونتان الخ...

(3) نور الدين بن الطيب : عرض الكتاب : الخبز والحبّ والهذيان - الشروق 28 نوفمبر 1991 ص 14 و 15.

(4) أنور عطية : Depain, d'amour, de mots en délire la Presse, 18 Novembre 1991 الخ...

ثانيا : دراسات جلول عزّونة حول القصة :

(1) انطباعات قصصية : سلسلة من المقالات - قصص عدد 31 (ص 78 إلى ص 87) - عدد 43 (ص 44 إلى ص 56) جانفي 1979 عدد 47 (من ص 75 إلى ص 89).

(2) أدب القصة في تونس : قصص عدد 40 أفريل 1978

(3) تطوّر الفنّ القصصي في تونس : الملحق الثقافي : الحرية (19 ماي 1988 - من ص 28 إلى ص 30) و 26 ماي 1988 من ص 10 إلى ص 13.

[عرض نقدي لهذه الدراسة بقلم علي ساسي : الأيام 28 جانفي 1988 - ص 12].

(4) من أجل إضافة عربية مميزة في ميداني القصة والرواية

(بحث ألقى ضمن أعمال المؤتمر 15 للأدباء العرب ببغداد من 17 إلى 23 مارس 1986) انظر تعليق ليلى السايح : القبس 1986/4/10 ص 28 نشر في كتاب أعمال المؤتمر - الجزء الأول من ص 75 الى ص 103 وكذلك بمجلة الآداب - اذار 1986 ص 154 الخ...

(5) الحرية في الإنتاج القصصي التونسي :

(بحث ألقى بموسكو ضمن أعمال الملتقى السوفياتي التونسي حول الرواية والقصة - من 3 إلى 10 سبتمبر 1986).

نشر بقصص : عدد 78 «ديسمبر 1987 ص 56) وعدد 79 (مارس 1988 ص 23).

(6) حول كتاب فضاء محمود التونسي الحياة الثقافية (عدد خاص بالقصة - أكتوبر 1977 من ص 109 إلى ص 115).

(7) الحرية والعدالة في كتاب فضاء لمحمود التونسي :
الرأي الثقافي غرة أوت 1980 ص 2 و 3.

(8) حول أصول القصة بتونس : قصص : عدد 60 - أفريل 1983.

(9) اندري بييلي وصفحة أدبية عن تونس (الرأي الروسي) الأيام 9 أفريل 1987.

(10) في بدايات القصة التونسية وأبيلوس المدوري
- الأيام 2 جويلية 1987 ص 16 و 9 جويلية 1987 ص 16.

(11) رواية حركات للفارسي والتبشير بعهد جديد في الأدب (بحث ألقى ضمن أعمال المؤتمر 17 للأدباء العرب - تونس - ديسمبر 1990).

ثالثا : محاضرات :

(1) الرواية التونسية والجزور : ألف ليلة وليلة والدفلة في عراجينها (ضمن أعمال ندوة الرواية - نادي القصة - الوردية - ماي 1985) - (مخطوطة).

(2) القصة التونسية وخصائصها : بوسام - (أفريل 1988) - (مخطوط) الخ...

(3) تقديم قصة الإضافة لشريفة العرباوي - منتدى القصّاصين 11 جانفي 1989.

(4) تقديم رواية الصعب لشريفة العرباوي - منتدى القصّاصين (1988).

(5) تقديم أقصوصة القوقعة لمصطفى المدايني بمنتدى القصّاصين (30 مارس 1988).

(6) حول طول احتجاز كتاب عباس يفقد الصواب لحسن بن عثمان - دراسة - الصباح 23 جانفي 1990 ص 8 [انظر كذلك جريدة الوحدة - 1988].

(7) تقديم أقصوصة رحلة الصراع لشريفة العرباوي نادي الإربعاء الأدبي - الطاهر الحداد. انظر مقال زهرة الجلاصي ورد شريفة العرباوي مجلة حقائق - عدد 237 - 8 مارس 1990 ص 22 و 23.

(8) مساهمة في تقديم «ليت هنداء» لحياة الرايس 1991/12/19 بمنتدى القصّاصين (1991) - انظر تعليق الصحافة...

(9) دراسة عن زهرة الصبار لعلياء التابعي، بالاشتراك مع حمة الهامي، قدمت في منتدى القصّاصين بتاريخ : 1991/11/28.

(10) المساهمة في تقديم مجموعة محمد العربي : الرماد

باتحاد الكتاب [جمع أقاصيص العربي : محمد الهادي بن صالح]
بتاريخ : أوائل سنة 1987 فيفري ؟

(11) تقديم أقصوصة لخديجة الجويني 1988.

(12) حول الرواية بصفة عامة [معرض الكتاب بتونس
[1990]

(13) تقديم مصطفى الفارسي [مهرجان صفاقس 1988].

رابعا : برامج تلفزيونية :

قصص حي، إعداد محمد العروسي المطوي وإخراج المرحوم
بولبابة الم رابط حول قصة حسن نصر : وتهوى حبيبتي الخيل سنة
1973.



(*) مساهمة في ندوة أقيمت في اتحاد الكتاب التونسيين بتونس أيام (22-23)
ماي 1992.

الفهرس

العدد 101 (جويلية - سبتمبر 1993)

المجلة السادس والعشرون

- 3..... عن بيان ندوة نادي القصة
5..... آخر خرافات جدتي التابعي الاخضر
15..... طفلة البدايات مصطفى الكيلاني
20..... ويموت الحب مرتين محمد الخموسي الحناشي
37..... كابوس عبد الوهاب الفقيه رمضان
45..... المرأة والاطار بوراوي عجيبة
49..... القرن رشيدة الشارني
57..... مسعود الشقي ميزوني البناني
65..... فلسطينية حسن سيد لبيب
69..... الفاليجة المختار المومني
74..... هروب ابراهيم بن سلطان
78..... الطفلة والبحر محمد المسلاتي

دراسات

- السرد واشكالية الجنس الادبي
82..... في كتاب «السد» محمد الباردي
القصة القصيرة في تونس
94..... (شهادة) جلول عزونة